اقرأ

حسن عبد الله القرشي

٤٠

أنات الساقية

دار المعارف بمصر

أنات الساقية

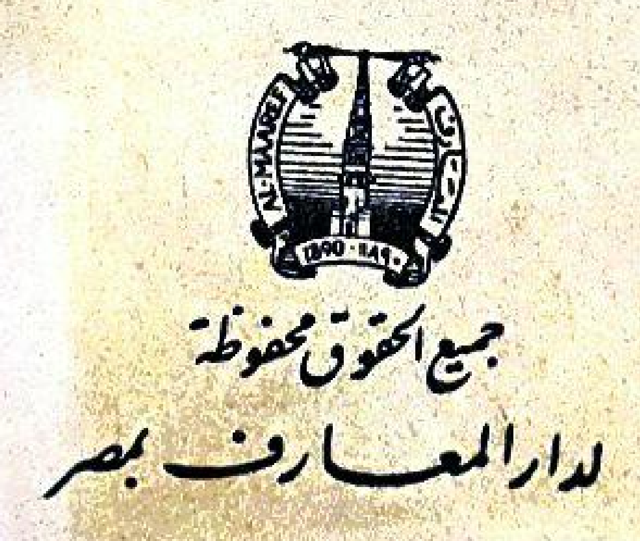


حسن عبدالله القرشي

أنّاتُ السّاقية



اقرأ ١٦٧ – نوفمبر سنة ١٩٥٦



الإهداء

إلى سيدى الأستاذ الكبير

الشيخ محمد سرور الصبان

أهدى هذه الأقاصيص

حسن عبد الله القرشى

تقديم

بقلم الأستاذ الكبير محمود تيمور

يقال إن كاتباً بعث إلى صاحبه رسالة مطولة ، وختمها معتذراً عن التطويل بأنه لم يكن لديه الوقت الكافى لكتابة رسالة قصيرة . . . يريد الكاتب أن مجال الرسالة الطويلة أروج لمن يكتب ، فهى لا تتطلب منه إعمال الروّية للتركيز والإدماج ، وأما الرسالة القصيرة فإنها أدعى إلى الدقة والتجميع . فهى أجدر أن تستنفد من الوقت والجهد ما لا يستنفد التطويل .

ترى هل يصدق هذا على القصة الطويلة والقصة القصيرة ؟

يبدو لى أن القول بذلك لا يخلو من تطرف وإغراق . والإنصاف يقتضينا أن نتجافى فى المفاضلة بين القصة الطويلة والقصة القصيرة عن هذا الميزان . وأن نعرف لكل منهما عبقريتها ، لا نبخسها حظها ، ولا نجحدها قدرها .

لاحظ النقاد بحق أن القصة القصيرة فى عصرنا الحاضر مهوى القصاص ، ناشئين وغير ناشئين ، وأن القصة الطويلة أقل نصيباً من إقبال الكتاب. وعلة ذلك ليست بخافية . فالكاتب والناشر والقارئ شركاء متضامنون فى العمل على شيوع القصة

القصيرة وإعلاء شأنها على القصة الطويلة . فهى — من حيث الكم — قريبة التناول من الكاتب المتعجل للثمرة ، والصحف تؤثرها بالنشر كما تؤثر الفصول المحدودة والمقالات القصار . والقارئ العابر يتسع لها ذرعه ، ولا يضيق عنها صبره . سواء أكانت فى صحيفة أم فى كتاب .

على أن القصة القصيرة — من حيث الكيان الفنى — لا تقل عن القصة الطويلة حاجة إلى قوة الملكة ، ووفور التجربة . فالبراعة الفنية تتمثل فى كل عمل وإن صغر . . . فلا تثريب على القصاص أن تستهويهم القصة القصيرة . لا من تهاون ، ولكن من مسايرة لتلك الحظوة التى ظفر بها هذا اللون من الفن القصصى كما ظفرت بمثلها الأنشودة فى الغناء ، والمقطوعة فى الموسيقى ، والمقالة فى الميدان الصحفى .

وبين يدىّ الآن إضمامة من الأقاصيص القصار ، كتبها الأستاذ الصديق « حسن عبد الله القرشى » ، قرأت جملة منها فى جلسة طيبة . فرأيتنى أتمثل فى مجموع ما قرأت ، شخصية كاتب يتألق بميزات ليست تطفلا على الفن القصصى ولا اقتحاماً له ، وإنما هى أدوات تمكن لصاحبها أن يكون له فى عالم القصة جولة وصولة !

وشخصية الأستاذ « القرشى » صلة روحية بين « مصر »

و « الحجاز » ، ولذلك استبانت فى أقاصيصه معالم تلك الصلة ، وتجلت ذكرياتها المتبادلة . ومن ثم كانت صورة تنطوى على كثير من الصدق فيما تعرض من التواصل الاجتماعى بين « الحجاز » موطن العرب و « مصر » عاصمة العروبة .

وفى أقاصيص الأستاذ « القرشى » أصداء المجتمع العربى فى خصائصه الهادئة ، وطبيعته المطمئنة ، وسذاجته المحببة .

ولعل الكاتب يعكس على هذه الأقاصيص ما يتجلى فى شخصيته هو من طواعية النفس ، واعتدال التفكير ، ومن الجنوح عن الإغراق فى التخيل والإبعاد فى التصوير ! ولا ريب أنه يجارى فى أقاصيصه تلك البيئة السائدة من حوله ، إذ يتناول الظواهر الاجتماعية التى هى أقرب إلى الفطرة فلا انطلاق فى الاستيحاء ولا إيغال ، ولا مجانبة فى التعبير لما تقتضيه العفة والاحتشام .

وقد نأى الكاتب بنفسه عن ذلك الصراع المشبوب بين مذاهب القصة ، تلك المذاهب التى هى أجدر أن تسمى مذاهب النقاد ، لا القصاص . . . فهو فى أقاصيصه مستقل بأمره ، لا يترسم واقعية أو رمزية أو غيرهما من أشتات المواضعات ، وإنما هو يعرض ألواحه غير متقيد بقيد ، ولا متكلف لفنه حلية ، يحدوه الطبع ، ويسلس له عنان القلم .

لا يعوز هذه الأقاصيص ذكاء الكاتب فى تصوير أبطالها ولا خفة روحه فى إفاضة الفكاهة عليها ، بل السخرية منها أحياناً . وثمة لفتات شائقة ، وملاحظات لبقة ، وأسلوب فيه صفاء ويسر ، يجانس ما فى جو الأقاصيص من يسر وصفاء .

وفى طائفة من أقاصيص هذه الإضمامة ، يتدسس الكاتب إلى دخائل النفوس ، فيجلو بواعث ما تبدى ، لا يجتزئ بالسرد ، ولا يظهرك على الشر وحده تراه شرا بحتاً ، ولكنه يطل بك على تلك الدفائن المعقدة ، تلك المسوغات التى اطمأنّ بها صاحبها فسوّلت له الشر ، وشجعته عليه ، وورطته فيه ! حتّى إذا بلغت من القصة غايتها وقفت منها موقف الترّدد بين السخط على التّهافت الإنسانىّ البغيض .

تشهد هذا واضحاً فى قصة « ثورة ضمير »

كما تلمح فى قصة « عم شعبان » إشارة لطيفة إلى أن المرء تعتاده فى حياته ذكرى ما صنع فى أمسه ، لأدنى ملابسة تعرض لها فى يومه .

وفى قصة « رسالة غرام » تروقك نفسية الرجل فيما يعروها من انقلاب وفقاً لتعاقب الأحداث .

وفى قصة « حية تسعى » تبتسم لهذين الصديقين يفترقان لسبب تافه فتجمع بينهما حية موهومة ، وتضحك حين يلاحظ

لك الكاتب أن ساكن البيت يسب صاحب البيت لأنه ابتنى قبوا يصلح لاختباء الأفاعى .

لست أبغى بهذا التمثيل أن أتخذ لنفسى موقف الوسيط بين الكاتب والقارئ فأختار للقارئ ما يستمتع به من هذه الأقاصيص . . . فالأذواق — ولا سيما فى مجتمعنا العربى الحاضر — تتعدد كما تتعدد الألوان ومشتقات الألوان ، ولكنى مطمئن إلى أنه لن يعدم أحد من القراء بين صفحات هذه الإضمامة ما يلائم ذوقه .

محمود تيمور

أنات الساقية

كان « حميد » جالساً قرب « الساقية ». ولو راح شاعر موهوب يسكب على الورق رائعة من خرائد الشعر تزرى بعقود الجمان ، ويتغنى بسحرها الزمان ، لما استطاع أن يصوّر مرح « الربيع » كما هو ثائر معربد فى إحساس « حميد » وتوهج نشاطه وبشره !

إنه فتى البادية ، وهبته بساطتها وصراحتها ، وأكسبته جهارتها ونضارتها ، وسكبت فى شبابه من شبابها الخالد وعنفوانها الدافق . حميد ابن المروج الخضر ربيب المرابع الزهر ، بسق فى « الطائف » الأنيس ، كما تبسق خميلاته ، وروته مياهه العذبة فهو عذب الحديث طلق المحيا .

صقلته الخمسة والعشرون ربيعاً فسوت فيه الرجولة الواضحة والشمم والإباء ، وهذبت غرائزه بيئته العربية الخالصة فإذا هو فتى قريته وأمل عشيرته .

ونفحت الأزاهير أريجها الفواح فإذا حميد ينشق هذا العبير ويترواه ، وروى غده البهيج ترفرف حواليه مصورة له موكب الأحلام الزاهر حينما تزف إليه ابنة عمه « ناجية » فتملأ أفراحه

القبيلة وتدق له بشائر الفوز بفتاته النبيلة .

وهتفت به الآمال متسائلة : ولكن متى يا حميد ؟ متى ستبنى بناجية ؟ ومتى ستزف إليك عروس الأحلام ؟ !

إن حميداً كلما ذهب إلى عمه مستنجزاً وعده بتزويجه ناجية هش له مرحباً متعشماً فيه إرجاء الموعد حتى تنضج الفتاة ويكمل عقلها .

وعاد حميد ، أو عادت الآمال تسائله ؛ ولكن ناجية الآن قد فرعت ستة عشر ربيعاً ، فهى بلا ريب على نضج واستواء ، قد اكتملت أنوثتها ، وضاع عبير سحرها ، وملأ الأسماع نبأ جمالها ، وبهر الأبصار بريق فتنتها . إنه لغاد إلى عمه صباحاً بلا ريب ، فملح أيما إلحاح فى إنجاز الزواج ! ولا شك أن عمه سيستجيب وقد « أنجز حُر ما وعد ! »

ويطل الصباح إطلالة الندى على مباسم الورد ويستقبل حميد نشيطاً منازل عمه ، تسدد خطاه عزيمة الشباب ، ويؤجج صدره ولع وهيام !

هذا هو عمه يرد تحيته فى هيبة ووجل ! أين ما عهده حميد من بشاشة وترحاب ؟ ولكن اللقاء الشاحب لا يفتر من عزيمة حميد ، فها هى ذى كلماته تتسابق مستنجزة مستعطفة !

ولكن عمه لا يجيب ، وكأنه لم يسمع نداء قلب ابن أخيه

ولم يبصر دفقات لواعجه ، تعبر عنها شفتاه الراعشتان وعيناه النديتان !

ويسود الصمت حميداً وعمه حتى يقول له العم . ألا فلتمهلنى أياماً يا حميد فسيكون كل خير إن شاء الله .

ولكن الكلمات تخرج من فم عمه مرتدية غلائل يأس عقيم ، منبئة عن ألم كظيم ، أتراه أخطأ إذ فاتح عمه فى ظرف كان فيه العم مهموماً من أمر من أموره؟ أم هو يتعلل لغاية فى نفس يعقوب ، وما كان يوماً بذى التعلات؟ لقد كان ظاهر الصراحة واضح القول دائماً. ألا إن فى الأمر لسراً سيكتشفه دون شك بعد أيام ! !

وتصرم شهر وعاد حميد يذكر حاجته فى ذلة الواله وضراعة الأسير ، ولكن العم لا يحير جواباً بل ينيب عنه فى الجواب دموعاً حراراً تغمر وجهه وتفهق بها لحيته .

— آه ! ما يؤسيك يا عماه ؟ !

— إن ما يشجينى يا حميد أن حجازاً سميكاً قد قام يذود عنك ناجية ، ويمنعك قربها طوال العمر .

ولو هبطت صخور الوادى على رأس حميد فتناثرت ذرات فى الهواء ، لما أحس فى نفسه من الألم ما أحسه لحظتئذ ! !

أفى حلم هو أم فى يقظة ؟ ؟

أيخاطب عمه أم يخاطب غريباً عنه؟؟

آلكلام عن ناجية أم عن أنثى بعيدة عنه؟؟

إن عمه لذو وفاء ونجدة ، وإن ناجية لابنة عمه المتعارف على زواجه بها تعارفاً يغلب اليقين ويقهر الأبد!

وإنه لفى يقظة فما هو بناعس ولا حالم!!

وإذن فقد أعد له القدر كارثة لم يطقها العم ، ومن ثم اضطر أن يزلزله برده الأليم القاسى!

ولم يستطع حميد أن يقول شيئاً فإن لسانه فى فمه قد أصبح قطعة جلمد ، فوقف ينتزع الخطو انتزاعاً ، آمًّا ناحية الساقية! تلك الساقية التى طالما استمع إلى حنينها مرجعاً حنينه ، فها هو ذا الآن يصغى إلى أنينها مازجاً به أنينه!

وتطن أذنه فيستطير . . . وتسعى إليه أمه هاتفة : أو أبلغك عمك يا حميد النبأ المزعج؟ ويلتفت إليها سادر النظر شارد الفكر! وتصب فى مسمعيه الأم ما بلغها من أسباب الحدث الذى أشجاه فأصماه .

لقد جاء مالك الضيعة فى الحضر الشاب الثرى السرى « غالب » ، ومن له ولآبائه من الأيادى الجسام على عمه وعلى عشيرته ، ومن الأنعم ما تنوء به أعناقهم وما يوقر ظهورهم ، جاء خاطباً ناجية . وبرغم وجاهة العذر الذى تذرع به العم

وانتحاله كل الأسباب لإرجاع الخطيب الجديد عن موقفه فإنه لم يتراجع ، فهو قد رأى ناجية فى إحدى زياراته للضيعة ، وقد علقها قلبه فلا يهدأ له مضجع ولا يستقر على مهاد ، وقد تهدد العم – إذا ما أصرّ على الرفض – أن يذيق العشيرة ذل التشرد ، وأن يجليها عن مزارعه لينالها الكرب والضيق وتعضها الفاقة ويؤودها الحرمان ، أو يزوجه ناجية ، فيضمن الرغد والميسرة . ولم يكن للشيخ الفانى من مجال للاختيار ، لاسيما أنه ذاق من لأواء الدهر وشدته ما ألهمه الدروس التى لا تنسى ! وإذن فقد رضخ لإرادة القدر ,وقد تم عقد الزواج . وهتفت الأم بحميد :

– وقد وعد غالب بأن يقطعك تعويضاً عن ناجية ، وأين منها العوض؟ خير بستان تريده ، ويكتبه باسمك ملكاً لا يشاركك فيه أحد ! ! ؟

وهنا تصاعدت أنات الساقية كأنما تودع إلى المقر الأخير حباً تضوعت به البقاع . وتتابعت صرخات الأم متعالية فى أجواز الفضاء تصيح :

– وا ولداه . . وا ثكلاه . . . وا ذلاه ! !

لقد كانت الأم تتحدث إلى حميد بينما كان ينكث بشفرته

المرهفة فى الأرض التى بين قدميه. ولقد وخز حميد نفسه بالسكين وهو لا يدرى وخزاً متواصلا انبثق له الدم متفجراً من عروقه فى غزارة وتدفق ، ومن ثم سقط حميد سقطة المذبوح وتعالى صراخ أمه الولهى :

ــ وا ولداه . . . وا ثكلاه . . . وا ذلاه ! !

* * *

إن حميدا فتى البادية ، وربيب المروج الخضر ، وأليف الربيع الفوار ، وخدن الهوى السمح الطهور ، يعيش الآن فى مصح الأمراض العقلية شيخاً أشيب ، هدمته السنون ، وقوست ظهره الأيام . أما سلوانه الوحيد بين زملائه المساكين فهو أن يصفر صفيراً خافتاً متقطعاً مقلداً فيه « أنات الساقية » ! !

ثورة ضمير

فرك « محسن » كفيه حزناً وأسى على صديقه « مراد » الذى مات فجأة ، وبدا فى صورة من التجهم تنبئ عن عظيم الألم وعميق الشجو !

وسار فى الجنازة وحده . . . والناس حواليه يمشون أزواجاً وجماعات ، بعضهم يتذاكرون أخلاق الفقيد وعظم ثروته مع شدّة بخله ! . . . وبعضهم يتحدثون عن عبرة الموت ! . . . وبعضهم يخوضون فى أنماط من الكلام لا تمت إلى الموكب الذى ينتظمهم بأية صلة من الصلات !

أما محسن فكان يمشى وحده ! وحين رآه الناس منفرداً تهامسوا : إن محسنا يكاد يكون صديقه الوحيد فمن حقه أن يسير وحده يقتات بآلامه ولا يشرك فى حزنه أحداً !

إن الكمد ليبدو فى عينيه جلياً ، أما ما يدور فى خلده وما يجول بقلبه من خواطر فلا يعلم به إنسان !

كان محسن فى الواقع مشغولاً عن الجنازة التى هو سائر فيها ، بما هو فى نظره أهم . . . لقد فوجئ فعلا بموت صاحبه وأحس لموته لذعة وحرقة . . . ولكن ما يعتلج فى صدره وما يموج

فى رأسه من أفكار متصارعة هو فى الحقيقة أكبر من أن يبوح به حتى لنفسه ! !

لقد كان محسن موضع سر الفقيد مراد ومؤتمن مشروعاته ، وإن لم يصب منفعة من ذلك إلاّ أيسر اليسير ، ولكنه كان مثابراً على الود ، ما إن يطلبه مراد حتى يجده رهن إشارته !

والذى يثقل محسنا الآن هو السر الخطير الذى يحمله بين جنبيه وحده ولا يدرى به أحد سواه ! ! والذى تكمن فيه — إن تكتمه — سعادة الأبد ، أما إن أذاعه فسيظل صريع الحرمان أليف الألم والخيبة طوال عمره !

ولكن لماذا لا يتكتم هذا السر وينعم بما سيفيضه عليه كتمانه من خير ونعمة ؟ . . . هذا ما كان يحاور فيه ضميره دون أن يهتدى إلى قرار ! !

إن فحوى هذا السر العظيم ، هو أن صاحبه قد أسلمه فى الليلة التى صبحها موته مبلغاً كبيراً من المال ، هو عشرة آلاف من الجنيهات الورقية ، ليغدو به مبكراً على أحد المصارف فيحوله إلى الخارج لحساب الصديق الفقيد ! !

لقد أخرج المبلغ من خزانته التى لا يطلع على محتوياتها أحد ، وأعطاه إياه ثقة فى أمانته ، ولأنه طالما كلفه من قبل بخدمات من هذا القبيل ، فكان مثال النزاهة والعفة ، لم تحدثه

نفسه مرة بالمغالطة فى نقير أو قطمير ! !

ولكن يا لسانحات القدر . . . لقد مات مراد دون أن يعرف أحد عن المبلغ شيئاً ودون أن يغدو محسن على البنك فيسلمه له !!

وهجس فى نفسه خاطر مؤلم ألا َ يكون مراد قد سبق له أن تفاهم مع البنك على إرسال المبلغ ؟ . . . كلا فما كانت هذه طريقته من السابق فلم َ تكون محتملة الآن ؟

وقفز إلى ذهنه خاطر آخر . . . ألا َ يكون قد أبلغ أحد أهل الدار من أولاده أو نسائه بذلك فتكون فضيحته كبرى فيما لو تكتم الأمر ولم يبلغهم به . . . وحدث نفسه أن هذا الاحتمال كذلك بعيد جداً ، وعلى أى حال فإنه سوف ينتظر ما يفاتحونه به إذا كان لديهم علم . . . ثم ينقدهم المبلغ فى حالة معرفتهم السر !

أما إذا لم يكن لديهم به أى خبر ؟ !

وصمت مبتلعاً أنفاسه ! . . .

وارتسم هذا السؤال الحائر أمامه ثانية . . . ولج فى أن يجد الجواب !

لقد طالما أدى محسن لصديقه مراد خدمات كبرى وقام بدور السمسار فى كثير من العقار الذى كان صديقه يسرف

فى شرائه واقتنائه ، ولم ينل من صديقه أى مقابل على أية خدمة من هذا القبيل ! !

ولقد لازمه طوال حياته ملازمة الظل ولم يظفر منه إلا بالجرعات الخفيفة التى لا تنقع غلة ولا تبل صدى !

ولكن هل هذا مبرر يكفى لاستحواذه على المبلغ؟ . . . وبأى حق يتصرف فى مال غيره وهو رجل لم يسرق قط ولم يرتش ؟

أليست هذه سرقة صريحة يعاقبه عليها الله وإن لم يكتشفها الخلق ! !

أليس لهذا الرجل أسرة وذرية كبيرة لكل واحد من أفرادها قسط فى هذا المال الذى يحاول أن يستولى عليه ويجردهم منه ؟

ولكن أما لهؤلاء فى ثراء مراد الطائل وكثرة أمواله وعقاره ما يغنيهم عن هذا المال القليل بالنسبة إلى ما سيوزع عليهم من الأموال الوفيرة التى يستحى هذا المبلغ التافه البسيط أن يتطاول إلى أرقامها ! !

وحين وصلت الجنازة إلى المقبرة . . . وأنزلت الحفيرة كان عزم محسن قد استقر تماماً على ألا يخبر بالمبلغ الذى اؤتمن عليه أحداً . . . وأن يجعله أساساً لثروة صغيرة ينميها لصالحه . . . ويتصدق بجانب كبير من ربحها على روح صديقه المرحوم مراد ! !

وما إن وصل إلى هذه المرحلة حتى كان التراب قد هيل على الراحل الفقيد . . . وكان محسن هو الوحيد الذى انهارت أعصابه فى تلك اللحظة أى انهيار ، فانهمرت الدموع دفاقة من مقلتيه ومزق عويله نياط القلوب . . . ورشح فى الحال ليوضع فى قائمة أهل الميت الذين يتقبلون فيه العزاء غب دفن الجنازة ! !

وتصرمت أيام المأتم . . . وتبعها أسبوع وأسبوع ولا أحد يفاتح محسناً فى أمر المبلغ الذى استولى عليه عنوة وناله حراماً ! !

وأرضت هذه النتيجة محسناً بالرغم عنه ، فإن ضميره كان دائماً ثائراً للفعلة القبيحة التى أقدم عليها فخان الأمانة ، وضيع حرمة الصداقة ، ولم يرع ذكرى الميت الذى كان سلوانه أنه يجلس إليه فيأنس لحديثه ، ويطرب لمعشره ، وينفحه بالقليل من الطيب الحلال ! !

ولكن محسناً سرعان ما يخرس صرخات هذا الضمير ويكبت صداها فى نفسه بأنه سوف يتصدق على روح صديقه متى أفاء الله عليه من أنعمه بما يوازى هذا المبلغ الذى أودعته الأقدار فى كفه كقرض مقسط الدفع ! !

والضمير أداة طيعة مرنة إذا أطبقت عليها يد الفقر والعوز وشدتها كلاليب الحاجة وقسوة الحياة !

* * *

واجتمع أهل الميت ليقرءوا وصية الفقيد الراحل ويقتسموا الميراث ! !

وفتحت الوصية . . . وفى الأسطر الأولى منها كان مراد الفقيد يوصى لصديقه محسن بدار من الدور الكبيرة التى يمتلكها ؛ دار فخمة حديثة لا تقل قيمتها النقدية عن عشرين ألفاً من الجنيهات الذهب ! !

وأكبر الناس فى الميت هذه الأريحية وأجمعوا على أن محسناً يستحقها ويستأهلها ! ولكنهم دهشوا حقاً وعجبوا طويلا حين اعتذر محسن عن تسلم الدار . . . وحينما أخذته موجة من الألم الجارف العاصف فأغمى عليه ! !

وتمسك محسن بالإصرار على رفض ما أغدقته عليه وصية صاحبه مراد السخية !

آه لو علم مراد الملاك أية خسة ونذالة وأى نكران وخيانة ارتكبتها فى حقه ، وبأى شعور من اللؤم الحقير قابلته وهو بعد جثة حارة لم يبردها الثرى ؟ ! !

وقال الناس يا له من وفى ! إلا أن حبه الصادق لصاحبه أبى عليه أن يستمتع بماله بعد وفاته فرضى بالشظف والألم !

وقال بعضهم ألا إنه لأرعن مخبول أحمق !

أما هو فكان يقول لنفسه : كلا لن آخذ شيئاً ، إننى لا أستحق سوى النقمة والزراية بدلا من الإعجاب والاحترام . لقد بعت عاجلا حراماً بآجل حلال . وإن علىّ أن أكفر ! !

ذكر . ؟ . . أم أنثى ؟

وقف « عبد المجيد » يذرع ممشى المستشفى جيئة وذهوباً ، وحالته العصبية تدل على أنه مقدم على أزمة نفسية قاتلة إن فوجئ بالنبأ الذى يتمنى من كل قلبه ألا يسكّ مسمعيه !

لم يعنه أن زوجته تتألم فى سريرها تنتظر وليدها وهى فى عسر وشدة . . . لم يعنه إلا أن يسمع الخبر الذى إما أن يسرّه فيغدق عليها العطف ويغمرها بالحنان ، وإما أن يصعقه فيكون نصيبها التنكر والهجران ! . . .

وأخيراً . . . أسرعت إليه الممرضة اللبنانية تزفّ إليه النبأ الذى كانت تظنه سيسره وسيملأ نفسه أملاً وحبوراً : لقد جاءك ولد ذكر ! . . .

وعجبت الممرضة للألم الشديد الذى ارتسم على محيا عبد المجيد . ما بال هذا الرجل ؟ أأصابه خبال أم شذّ عن قاعدة الرجال فهو يريد أن يبشر بالأنثى التى لم تكن يوماً موضع سرور الأبوين ! !

وعلى أية حال فلم يضرْها أن يغضب أو يبتهج ، فمضت إلى غايتها . أما هو فبقى فى مكانه ملتاعاً تتصعد آهاته وتتسعر أنفاسه .

وسرعان ما ركب سيارته وذهب إلى طيته دون أن يشفق على زوجته المسكينة التى انتفضت أحشاؤها بعد عناء وضيق عن جنينها الذكر ! فيبادلها كلمة عطف وحب !

كم ساءت زوجته « نبيلة » منه هذه المعاملة الخشنة التى لم تكن لتستحقها بحال ، فهى لم تجن ذنباً ، ولم تأثم ، بل لقد كان من سوء طالعه أن يولد له ابن ذكر . . . وتأبى المقادير أن تمنحه أنثى كما هو أمله !

* * *

وتزوج عبد المجيد من جديد ! . . .

ومضى عام ! . . .

وتكرر الموقف نفسه . . . ووقف عبد المجيد فى رحبة المستشفى ينتظر نوع الوليد . . . ويسأل الله فى نجاء حارّ أن يهبه بنتاً وألا يفجعه فى حبه لزوجته الحديثة « نادية » التى شام فى معاشرتها ورفقتها أجمل ما يمتع الرجل وما يصبو إليه فى ظلال الزوجية السعيدة ! . . .

ترى هل يتماثل موقف الأمس القريب فتتصوّح آماله ويتهدم صرح أحلامه ؟ أو يشفق عليه القدر فتزدهر أمنياته . . . على أية حال إنه مصمم فى الحالة الأولى على أن يتزوّج ثالثة ، وألا ينتظر إحدى زوجتيه حتى تلد له البنت . يتزوج . .

ويتزوج ، ولئن بلغ عدد زوجاته أربعاً ولم تولد له الأنثى فسيطلق الأولى ليتزوّج مرة خامسة .... هكذا أصر عبد المجيد ! ...

وقطع عليه حبل تفكيره وتصوراته النبأ المتخاذل الذى سيق إليه ! !

لقد جاءتك أنثى ! !

وقفز عبد المجيد قفزاً إلى مثوى زوجته فى المستشفى وهى فى حالة من إنهاك الوضع ، فقبلها فى جبينها ووجهها ، وأحاطها بفيض من حنانه الدفاق ، وأمسك بالطفلة كما يمسك البخيل بجوهرة نادرة تشع نوراً فى المكان ، فأشبعها لثماً ... وكان صراخها الصغير أحلى فى مسمعيه من وقع أشجى الأنغام وأعذبها إنها أمنية العمر وحلم المستقبل ! ... فكيف لا تملأ فرحته الدنيا بهذه البشرى العظيمة !

واختار لطفلته الاسم المدخر لها فى ذاكرته منذ أعوام : « هند » !

ودرجت هند مع أخيها « عصام » فى دار واحدة تلوّح بإصبعها فتنهال عليها اللعب والحلوى وكل ما يحلم به الأطفال ، ويبكى عصام أحرّ بكاء فلا يظفر بلعبة من اللعب أو قطعة من الحلوى التى تتدفق على أخته وتغمرها غمراً !

مسكين عصام ! لطالما حزّ ذلك فى نفسه الطفلة حزاً وملأها غيظاً وحنقاً ! . . . كما ترك أخيراً أثره على جسمه الصغير ، فإذا به ضاو هزيل شاحب منطو على نفسه ، وإذا أحد لا يلتفت إلى وهنه وهزاله واكتئابه ، على حين كانت أخته هند بضة الجسم يتفصد إهابها بأثر النعمة وبالجوّ الناعم البهيج الذى ترتع فيه طليقة مرحة تملأ حياتها المسرة ويتنافس الجميع لإرضائها.

وبلغ عصام تسع سنوات من العمر !

وجاء إلى أبيه يوماً من ينبئه أن عصاماً يصطلى بنار حمى قاسية ، وهزّه هذا النبأ هزاً عنيفاً . . . كأنما استفاق بعد طول هجود ! ونقل عصام إلى المستشفى فإذا به مصاب بالتيفوئيد ، وإذا بالحمى قد صهرته صهراً ، وسرت فى كيانه سرياناً لم يدع لحذق الطبيب وقوة العلاج ما يقاوم الداء وما يبعده عن الجسم الصغير المنهوك ! . . . .

ووقف الأب الشاب منحنى الظهر سادر النظر . لقد أحس بملاك الموت يرفرف على عصام !

كان عصام فى حالة النزع . . . وكان يدور بنظراته الحائرة ويصرخ : ادعوا لى أبى . . . أريد أن أرى أبى ! وحينما يراه كان يقول له اذهب الآن . . وعد بعد قليل ! . . . لماذا كان عصام يقول هذا ؟ لا أحد يدرى !

وحين وقف الأب المفجوع أخيراً على رأس ابنه يرجع فيه نظراته الأخيرة الباكية الولهى . . . كان عصام يجود بآخر أنفاسه التى سرعان ما صعدت طاهرة بريئة إلى السماء ! !

* * *

مسكين عبد المجيد كم من مرة وقف موقفه الأول والثانى من المستشفى ينتظر أن يصافح أذنيه نبأ سار يقول له. لقد جاءك ولد ذكر ! !

وأبى القدر أن ينيل عبد المجيد مرتجاه ، بل كان يبشر كل مرة بالأنثى حتى بلغ عدد ذريته سبع بنات !

لماذا كان عصام المسكين يودّ أن يرى أباه وهو على سرير الموت حتى إذا رآه طلب منه أن يخرج ثم يعود ؟ !

يجيبك على ذلك عبد المجيد ، والعبرات تخنقه ، والألم يعتصره : لقد كان يشعر أننى ضننت عليه فى سنيه القلائل القصار بعطف الأبوة ، فأحبّ أن يترع لى الألم الممض جرعة بعد جرعة وأن يحرمنى رؤيته فى تلك اللحظات مرة واحدة ! ! آه لو كنت أدرى ! !

ويغلب التأثر عبد المجيد فيبكى . . . وهو يهمس : دعونى أبكى . . . إن هذا أقل ما يجب أن أكفر به الآن عن غلطة الأبوة وأنانيتها ! !

رسالة غرام

حينما بكر إلى مكتبه صباح ذلك اليوم لم يكن يدرى أنه سيفاجأ بمفاجأة تهزه هزاً وتعود به القهقرى إلى أيام الشباب التى خلفها وراءه والتى عاشها عزباً محسوراً لم يبرعم حياته الحنان الزوجى ولم تهدهده الهناءة العائلية ! . . .

لقد عرف «على» بين موظفيه بالشدة والصرامة ، فما يستطيع أحد منهم أن يهمس فى محضره همسة أو يتلفظ بكلمة أو يراجعه فى شأن من الشؤون الرسمية ، بل إن عليه فى حالة كهذه أن يضمن رأيه قصاصة من الورق يضعها على مفرق المذكرة التى تستلزم منه الملاحظة أو إبداء الرأى !

وهو يجلس فى غرفة منفردة ، فما يستطاع الولوج إلى محرابه إلا بعد أخذ ورد وجذب وشد ، وإلا بعد مشى طويل على أطراف الأصابع .

كان مكفهر الوجه دائماً ، عبوس الملامح أبداً ، وإن كان بعض من يعرفونه معرفة مؤانسة ومخالطة يؤكدون أنه طيب القلب حسن المعشر !

ووضع سكرتيره « محمود » بريده اليومى أمامه وانفتل راجعاً فى

خطوات هادئة إلى مكتب العمل !

أما علىّ الذى يحلو له أن يفض رسائله وحيداً ويؤشر بخطه على ما يستأهل التأشير ، فإنه أخذ يقلب الرسائل بين أصابعه .. وهو يفتحها واحدة تلو الأخرى حتى عثرت يده على رسالة تظهر الزركشة على غلافها الأنيق ، وإن كانت مثقلة بحملها ومكتوب عنوانها بخط الآلة الناسخة .

وسرعان ما فض بالسكين العاجية طرف الرسالة الرشيقة ، وإذا به يدهش لروعة الورق الذى سطرت فيه الرسالة وجماله . وما إن أجال فيها نظره حتى نحى بيده الأخرى الأوراق التى أمامه وأخذ يتلوها نهماً مشوقاً :

« حبيبى علىّ :

لقد ترددت كثيراً فى الكتابة إليك . . . لأن رجولتك الناضجة التى ملأتنى إعجاباً بك تجعلنى أتهيب الكتابة إليك وأخشى أن تظن بى الظنون . . . ولكن ما طغى علىّ من شعور نحوك يدعونى إلى ترك التهيب ومواجهتك برسالتى هذه مهما تكن العواقب !

إننى أشعر بوجهك الوضاء يطل علىّ من محيا القمر حين أسامره وحدى فى الليل ! وأحس بصوتك الخلاب يأخذ طريقه إلى أذنى حين تزقزق عصافير الصباح وتغرد مرحة صادحة !

وأشعر بروحك القوى يبعث فىّ العزيمة حين تكتنفنى الخطوب وتعتصرنى الأزمات !

وحينما تمر بخطاك المتزنة من تحت نافذتى أحس بأن هذه الخطا ترجع لى أنغاماً رائعة شجية يظل صداها فى قلبى مرنا مهما نأت الخطا !

إنك يا على — واسمح لى أن أناديك باسمك هكذا مجداً كما أهتف به فى الأحلام — مثال الرجل الكامل الذى ما إن تراه المرأة حتى تتمنى لو وهبته حياتها وذوبت رحيقاً لشفتيه روحها وسعادتها !

ألا ليتنى أستطيع أن أعيش لك خادمة لكى أحظى بعطفك وحنانك . . ولكن من يدرى أنك تبادلنى — لو أرادت الأيام — بعض هذا الشعور الذى يملؤنى نحوك . . ويكاد يذيب قلبى لوعة وأسى ؟ . . . من يدرى فقد تكون مشغولا بزوجتك وأولادك ! ؟

ولكننى برغم ذلك أحس أن الأيام ستجمع ما بيننا عما قريب

المخلصة الوفية

مريم

أعاد عليّ قراءة الرسالة مثنى وثلاث ورباع وهو لا يملّ قراءتها ! ولا ينقطع عنه فيض معانيها العذبة الرقيقة ! إن هنا إنسانة تتعذب . . إنسانة يذيبها الشوق إليه والحنين لرؤيته !

يا لخطها الأنثوى الساحر المحبب ! إنه يدل على أنها فتاة مكتملة الأنوثة رائعة الحسن ، كما يدلّ على أنها مثقفة قارئة ، وإلا لما استطاعت تصوير خلجاتها بهذا الأسلوب المشرق !

ولكن من هى ؟ إنها تراه يمر من تحت نافذتها فتصغى إلى وقع أقدامه ! . . ولكنه يسير من تحت نوافذ كثيرة وبيوت عديدة فكيف يعرف نافذتها لكى يطيل الوقوف تحتها لو أرادت ، ويبعث إليها بقبلات فى الهواء لو شاءت ؟

ألاَ ليتها أفصحت عمن تكون فقد يكون ذلك سبباً فى زواجه منها مستقبلا .

إن رسالتها تنبئ أنها لا تعرف عن حياته الخاصة شيئاً فهى تحسب أنه رب أسرة ، ولم تدر أنه أعزب وحيد . . لقد بهرتها رجولته وخلبتها شخصيته ، ولم يعنها أنه رجل تخطى الخمسين من عمره ! فما قيمة السنين إزاء الرجولة الواضحة ؟ ولكن أما كان الأولى أن تزيح الستار عن شخصها قليلا لكى يعرف على الأقل اسم عائلتها وموقع منزلها فربما ساعده ذلك على القرب منها والدنو من أفقها ؟ !

ورقت يومها معاملة على لموظفيه ... وزادت دماثته بعد ذلك ، وشجع صفاء نفسه سكرتيره مرة فجرؤ على أن يحدثه فى شأن من شؤونه الخاصة ، وأن يبين له مشافهة بعض الملاحظات على إجراءات العمل ! ... وأن يضحك فى حضرته لنكتة غير مقصودة تلفظت بها شفتا الرئيس المحترم !

وأمطره البريد سلسلة من رسائل مريم إليه ، ولكنها لا تعدو الرسالة الأولى من حيث تكتمها الإفصاح عن نفسها وإبراز شخصيتها !

وكان على إذا مر من تحت بعض الدور والبيوت تأنق فى مشيته وأبطأ من خطاه !

كما كانت هذه الرسائل تحتل دائماً مكانها من جيب. معطفه الداخلى على موضع القلب ، إنها كنز حبه الذى لم يكتشف

وزادت أناقة الرئيس ، كما تهذبت طباعه التى دهش لها الموظفون الذين يرأسهم ، ولكنهم حمدوا الله فى قرارة نفوسهم على هذا التحول الفجائى الذى انتاب رئيسهم .

أما على فقد زادت حيرته ، وكانت لهفته للرسائل غير المتابعة تزداد يوماً بعد يوم ، فى حين كانت هذه الرسائل مجللة بالغموض محاطة بالإبهام ، وليس ثمة من ضوء يبدد الحيرة التى تسكبها فى أعماقه ! ولكم ثار ساخطاً على التقاليد الجائرة

التى منعت فتاته من التصريح باسمها أو بعث صورتها ، والتى حينما هزّها الهوى الجائح لم تستطع معه كما قالت له مرة إلا أن تعبر عنه برسائلها التى لا تنتظر عليها جواباً ، والتى يكفيها — كما تقول — أنه يقرؤها ويشعر فيها بدفقات حنينها ولواعجها محتفظاً لها فى أعماق نفسه بصورة جميلة محببة !

* * *

وجاء اليوم الذى انقطعت فيه رسائل مريم انقطاعاً كلياً ، وشعر السكرتير — كلما قدم لرئيسه البريد — أنه يقلبه بسرعة ثم يزجى به — على غير عادته — فى ثورة وعصبية دون أن يقول شيئاً !

وأخيراً لم يستطع الرئيس أن يكتم سر مريم ويحتفظ به لنفسه فأحب أن يشرك معه سكرتيره « محموداً » الذى وثق من إخلاصه وأمانته ، فربما استطاع أن يعينه على كشف السر العجيب !

ودفع على إلى سكرتيره محمود بآخر رسالة تلقاها من مريم وهو يقول : هل تعرف حلا لهذا اللغز ؟ . . . .

وأمسك محمود بالرسالة يتصفحها ويمعن النظر فى سطورها، ثم همس وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة كانت فى نظر على الأم خبثاً وأشدّ نكراً !

— يخيل إلى يا سيدى الرئيس أن هذا ليس خط أنثى ؟

– كيف ؟ ألا ترى الأسلوب ؟ أما الخط فنسائى ما فى ذلك شك ، فإما أن أكون أعمى أو أن تكون أنت خبيراً بالخطوط لا يجارى !

– كلا يا سيدى إننى واثق من أن هذه الرسالة لم تكتبها أنثى قط ، ولو شئت لزدتك إيضاحاً . إن هذا بالتأكيد خط « عزيز » الذى كان موظفاً بالمصلحة ثم استقال قبل شهور وسافر إلى الخارج ! . . . هل بعث إليك يا سيدى برسالة أخرى غير هذه الرسالة؟ عفواً أقصد هل سبقت إليك رسائل غير هذه ؟ !

– كلا . . كلا لم أتلق سوى هذه الرسالة ! !

* * *

منذ ذلك اليوم لم تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتى على وزاد تقطيبه وتجهمه وقسوته على موظفيه أكثر مما كان عليه فى السابق ، أما الجديد الذى تم فى روتين العمل فهو أنه كلف سكرتيره محموداً بفض جميع الرسائل التى ترد باسمه قبل أن يعرضها حتى ما كان منها خاصاً وشخصياً ولا ينبغى لغيره النظر فيه والاطلاع عليه ! ! !

غروب أمل

وقفت « صالحة » تتطلع إلى المرآة . . كانت نظراتها قلقة حائرة وكان من يرنو إليها يقدر مدى ما يعتمل فى نفسها من شعور ممض !

لقد أنبأتها المرآة ما لم تكن تعلم : أنبأتها أن جمالها الصارخ المتفجر الدافق الحيوية النابض بالفتنة قد أصبح صبابة كأس كانت يوماً مليئة مترعة ، وظلال شمس مالت نحو المغيب ! وأن عينيها النجلاوين الساحرتين قد أحاطتهما هالة سوداء ، وأن مفاتن جسدها اللدن التى كانت تنضح بالصبوة وتغرى بالنشوة قد عادت ثماراً ذابلة لا تغرى الآكلين !

أنبأتها المرآة كل هذا ، بل أنبأتها أكثر من هذا : أنبأتها أنها فى خريف العمر ، وأن الخمسة والثلاثين عاماً قد أشفت بها على مرحلة اليأس الأنثوى المرير !

يا لقسوة العنوسة بل يا لقسوة الحياة !

منذ عشرة أعوام كانت صالحة زهرة ناضرة فى المجتمع تتحدث باسمها الأسر الراقية ويتسابق الشباب الخطاب متنافسين لكى يحظوا بجمالها الرائع الخلاب ! ولكن دون جدوى !

لقد كانت وحيدة أبويها .

وكانت الريحانة الشذية التى لا يستطيع أبوها أن يشم رائحة الحياة وهى بعيدة عنه .

أيزوج ابنته الغالية صالحة ، ويظل بعدها كليما كظيماً يقتات الذكريات ؟ من يقوم بشؤونه إذن ؟ ويؤنس وحشته !

ومن يؤدّى خدمته المنزلية بالإخلاص الذى تؤديه ؟

ومن يسارع إلى لثم يده فى اعتزاز إن هى نأت وضمتها دار أحد خاطبيها .

كلا ، إنه لا يستطيع مفارقتها إلا إذا فارق الدنيا وحال بينهما برزخ إلى يوم يبعثون ! !

وهكذا استشهدت أنوثة صالحة على مذبح رغبة والدها الشيخ !

مر بها ربيع الشباب مرور السحاب ، وتلقفتها يد العنوسة الجائرة ، كما تلقفت فوهة القبر أباها — آخر الأمر — إثر مرضة لم تمهله طويلا ، فزادت مآسيها وطال عويلها !

ألم يكف الأيام أن تفقدها ريعان الشباب لتضحى به فى سبيل مرضاة والدها ، حتى تفجعها أخيراً فى الوالد ؟ لتظل بعده فى دوامة الحياة حائرة ولهى !

لا ، لم يكف الأيام ذلك ، بل سطت كفها من جديد فأفقدت أمها بصرها ، فإذا بها حسيرة تلوذ بأركان البيت لياذ

الطفل فى دور المشى !

يا لله كم هى مسكينة صالحة ! وكم هى لئيمة هذه المرآة التى اجتلبت لها كل هذه الذكريات السود وأرتها من جديد واقعها المظلم الكئيب .

وانطرحت صالحة على سريرها ، وتدفقت من عينيها دموع غزار روت وسادتها ، هذه الوسادة التى طالما شهدت مآسى صالحة وطالما ترقرقت عليها دموعها ، والتى كثيراً ما ناجتها بما تكنه غريزة الأنثى التى صارعها الحرمان وغلبها الطغيان !

ورجعت بالذاكرة القهقرى . ترى بالله لماذا توفر أبوها على أن تكون فتاة منزل ممتازة تجيد التطريز والحياطة والأشغال المنزلية ؟ ولماذا حرص على أن تتعلم القراءة والكتابة بل وتتوغل فى ذلك توغلا ؟ . . . لماذا ؟ إن لم يهيئها لعريس المستقبل ؟

ولكن كم مرة حضر هذا العريس وطرق الباب ملحاً فكان نصيبه الرد والرفض وإيصاد الباب فى وجهه كل وصاد! . . .

كلا إن أباها إذ ثقفها وأحذقها كل ما تكمل به الفتاة إنما كان يهدف إلى أن يتمتع هو بمواهبها ، بل ربما كان ذلك مما زاد تعلقه بها ورغبته فى أن تعيش فى كنفه !

ألم يكلفها أحياناً أن تقرأ له الكتب الخاصة والرسائل التجارية ، ألم يحرص على ألا ينام حتى تقرأ له صحف اليوم وتعلق له على

أخبار الراديو ، فيثلج صدره وتقرّ عيناه وينام مرتاحاً ملء جفنيه ؟ ! أما هى فتذهب إلى سريرها وتظل فيه مسهدة ساهرة تسبح فى خيالات وتنسج أوهاماً وأحلاماً حتى قبضه الله إليه .

ألا َ إنها لمظلومة بائسة .

وإنه لأنانى أثر ! يرحمه الله !

وقلبت صالحة صفحات أخرى من سجل ذكريات ماضيها الحبيب فسرها كثيراً أن تتذكر « عدنان » ابن عمها الذى ناصبه والدها الكراهية لمجرد أن بينه وبين أبيه خلافاً فى الماضى !

عدنان الذى كان أول خاطب حركه جمالها وأثار كوامنه وخلجاته ، فتقدم إلى عمه خاطباً متحدياً رغبة أبيه ، ومع هذا فلم يظفر بغير الصد والاعتذار ، والذى عاود الخطبة بعد وفاة والده فلم يكن نصيبه أحسن من السابق !

عدنان الذى لم ييأس برغم شدة المقاومة التى لقيها وعنفها ، فكان آخر خاطب ! وكان أيضاً تعلة عمه فى رد بقية الخطاب ! .

والذى قال فى آخر رسالة لعمه محاولا استدرار عطفه : برغم ما ألقى من معاذير فإنى سأظل بدون زواج حتى يجمع الله شملى بشمل صالحة ، ويقرن اسمها باسمى ! وكانت رسالته هذه موضع تندر الأب وتحدثه بوقاحة ابن أخيه وجرأته التى ليس عليها من مزيد !

وحينما وصلت إلى هذه المرحلة من التذكر والتفكير كانت الساعة تدق مؤذنة بانتصاف الليل !

وزايلت صالحة سريرها وخفت إلى درج من الأدراج فأخرجت ورقاً وقلماً ! إنها تعرف كيف تترسل ، بل وتؤثر فى ترسلها ، لقد علمها أبوها الكتابة وإن كانت لم تستغلها قط فى منفعتها ، فلعلها مجدية عليها الآن !

إن عدنان لم يتزوج بعد برغم أنه ذهب إلى الخارج وتعلم فى مصر ، بل برغم أنه سافر إلى أمريكا وحصل على شهادة عالية . . . وربما كان لا يزال ينتظرها . . إنه لم يجدد خطبته بعد وفاة أبيها التى مضى عليها عام . . وقد يكون السبب هو اعتقاده بأنها حريصة على ذكرى أبيها وعلى إرضاء رغبته حتى بعد مماته محافظة على أن تظل روحه قريرة هانئة فى عالمها !

ألا ليته تقدم إليها الآن ، إذن لقدمت له ثراءها الطائل وشبابها . . . لا بل كل ما تبقى من شبابها فلم يعد لها الآن شباب ناضج ثائر يغرى الخاطبين ويسعدها بالفرصة الموموقة !

ما عليها ! فلتبدأ اليوم عدنان بالمراسلة ، فإنه طالما كاتبها من قبل ! وهل كانت رسائله المشبوبة إلى والدها إلا دفقات هوى لاعج موجه إليها ، وهمسات فؤاد حائر يرغب فى أن تسمع وجيبه وتهفو إلى خفقاته . . نعم ما عليها أن تجيبه الآن ولو مضت

على رسائله أعوام !

وخطت أناملها إليه .

« عزيزى عدنان .

لا تدهش إذا أتتك رسالتى هذه ، فإنها همسة حيرى أفقدها الدهر نصيرها وأضاعت الأيام أحلامها !

لا .. لم تفقد نصيرها وأنت سندها وعدتها .. أنت ابن عمها الذى هو الذخر إن فقدت الذخر ، والحبيب إن ذهب الحبيب ، لقد طالما ذكرت لأبى أنك ستنتظرنى مهما طال بك المطال .. وها قد تحقق أملك أخيراً !

إننى مدخرة لك يا عدنان كل مفاجأة سعيدة، فتعال إلىّ تعال !

المخلصة لك

صالحة

وحينما أوصل رسولها رسالتها إليه كانت تهيئ نفسها فى اليوم التالى لاستقبال عدنان ... وكانت المرآة تنبئها بتباشير جديدة، لقد أبرزت لها جمالها فى حلة من السحر والشفافية ، وأرتها أن الأعوام قد عادت بها يوم كانت تتخطر فى ربيعها العشرين !

نعم غردت الآمال فى روض خيالها وصدحت أناشيد البشر فى دارها التى أغرقها عرس الأحلام الجديد ، كما دبت اليقظة

بين خدمها ! . . . ولكن عدنان لم يجىء فى الموعد الذى قدرته
بل وافتها رسالة منه تقول :

« أختى صالحة :

تلقيت رسالتك النبيلة التى أشرقتنى بدموع الماضى ، وخضبت ذاكرتى بدم القلب الذى طالما سفحته قرباناً رخيصاً لحبك ، فوقف المرحوم والدك يذودنى عنه دون رحمة أو إشفاق ! لقد جاءت رسالتك متأخرة يا صالحة ، جاءت متأخرة كثيراً ، لا عن اليوم الذى مات فيه والدك ، ولكن كان يجب أن تأتينى قبل أعوام ثلاثة يوم تقدمت فى مصر إلى أسرة كريمة طالباً يد ابنة عزيزة عليها ، أثيرة لديها ! ولكنها وافقت إزاء الرابطة المقدسة التى تقدمت بعرضها ، وافقت أن تنيلنى خطيبتى لتعيش معى هنا بعيدة عن أهلها ، وهى المدللة المحببة تعيش معى هنا وهم هنالك ! . . . وستأتى إلىّ عما قريب !

إنه لا ذنب لك يا عزيزتى فى ذلك ولكنه ذنب الجهل والأنانية المقيتة . وعلى أية حال فإننى لا زلت لك النصير المخلص :

عدنان »

وحين طوت صالحة الرسالة ، وابتلعت قرصى الأسبيرين ، وقفت تتطلع إلى المرآة من جديد ، ولكنها لم تر شيئاً . . . لقد كانت الدموع المنهمرة تحجب عنها حتى رؤية وجهها فى المرآة !!

عم شعبان

« عم شعبان » رجل تخطى دور الشباب منذ زمن بعيد وخلف وراءه خمسين سنة حافلة بالكد والعمل الكادح ... خمسين سنة كلها جهاد ودأب وكلها شقاء ونصب لم يذق فيها مرة كأس الحياة من شفتى امرأة . لم يتزوج عم شعبان لأنه آثر أن تكون زيجته مليئة بالمتع والمسرات خالية من الأشباح الرهيبة التى تهدد مستقبل الأبناء والزوجة الجميلة ! لذلك آثر أن يؤمن حياة هؤلاء جميعاً معه قبل أن يتورط بإعالتهم بالعمل المستمر حتى يستطيع أن يدخر من المال ما يطمئن بعده مدى الحياة . ولم يجنح كذلك إلى سبيل الشيطان وطريق الغواية باقتطاف ثمار الخطيئة ، فإن بيئته الطيبة ونشأته المحافظة جنبتاه التدنى إلى هذا لدرك ! لذلك كان عم شعبان فى وفرة من نشاطه وعنفوانه رغم أنه فى الخمسين من عمره ، أى فى قمة الرجولة !

وكثيراً ما حمد الله إذ جنبه معاناة المرض ، فهو لم يشكه قط كل هذه السنين الطوال ، وهو يرجع أسباب ذلك إلى أن أبويه — يرحمهما الله — كانا موفورى الصحة وعلى بسطة فى الجسم ! لذلك فإن وثاقة تركيبه وقوة عضلاته متحدرتان إليه منهما كما

أن طبيعة العمل الشاق الذى مارسه ولا زال يمارسه كان لها أثرها فى رياضية عضلاته وتنشيط خلايا جسمه أن يعروها الكسل والتبلد ويتسرب إليها الخور والضعف .

وقد كان من حسن طالع عم شعبان وسعد حظه أنه قد خلف والده فى المقهى الكبير الذى كان يديره والذى كان هو منذ صغره يشتغل فيه جرسوناً ذكياً مثابراً على تلبية طلبات رواد المقهى فى سرعة مدهشة تنتزع إعجابهم وتستدر هباتهم للجرسون الحاذق الصغير الذى ظل أميناً على أداء عمله حتى بعد أن آل إليه المقهى وأصبح المتصرف الوحيد فيه يسوس بضعة من رعاياه الصبيان !

على ذلك درج عم شعبان ناجحاً كل النجاح فى مهنته ، وهكذا عاش يدير ذلك المقهى الذى تمتد أمامه مساحات متسعة من الأرض ورثها عم شعبان عن أبيه وأبى أن يفرط فيها بالبيع برغم ما أغراه به المشترون من أثمان مرتفعة .

وكيف يبيع هذه الأراضى وخياله طالما صورها له وقد أنشئت فيها القصور العالية والدور الجميلة تدر عليه فى مثل هذا الوقت الذى ارتفعت فيه أجور وأثمان العقار عشرات الآلاف من الريالات الفضية التى يكتنز منها عم شعبان الآن ما يزيد على الثلاثين ألفاً ؟ . . .

أجل فإن ثروة عم شعبان كما أحصاها أخيراً هى ثلاثون ألفاً ومائتا ريال ! أما القروش المختزنة منذ أيام زمان الموضوعة فى « برم » كبيرة فإن إحصاء الثروة لم يشملها بعد .

وذات مساء فكر عم شعبان وقدّر ، فرأى أنه قد قطع مرحلة طويلة من العمر ، وتذكر أنه قد آن له أن ينظر إلى الجانب المشرق من الحياة جانب المتعة بالزوج والأولاد ، فالمبلغ الذى ادخره وجمعه من كدّه وعرق جبينه ، والخمسة الدواوين التى يملكها بجانب المقهى الجميل المنسق ، وأرباح المقهى اليومية ، كل ذلك كفيل بأن يطمئنه على مستقبلهم ومستقبله هو أيضاً ! واستعان عم شعبان بدادة «جميلة» لتقوم بمهمة المندوبة تفتش عن بنت الحلال المصونة التى سيهيئها حظها الطيب السعيد لتمتلك قلب عم شعبان وتكون أم العيال .

وسعت دادة جميلة جاهدة ، وقامت بما طلب إليها على أحسن وجه وأكمله ، وأخيراً وفقت فى مسعاها وعادت إلى عم شعبان بالبشرى السارة :

— بنت زى البدر ، مات أبوها ، ليس لها غير عم فقير وأخ صغير ، تستطيع أن تجعله صبياً عندك !

— كم عمرها يا دادة جميلة ؟

— خمسة عشر عاماً . . .

ـــ عجيب ؟ وهل هى حلوة جميلة ؟ ؟

ـــ قلت لك زى البدر أول الشهر واسمها « بدرية » .

واتفق عم شعبان مع دادة جميلة لتقوم أيضاً بمهمة ثانية هى مهمة الخاطبة بعد مهمة المندوبة ، لقاء مائتى ريال ينقدها إياها إذا ما انتهى الموضوع . وعادت دادة جميلة تسبقها البشرى وهى تصيح :

ـــ شعبان . . شعبان . . لقد دعت لك أملك فى ليلة القدر.

ـــ الحمد لله هل وافقوا يا دادة جميلة ؟

ـــ نعم وافقوا وقالوا هى لك جارية !

ـــ يا سلام إن هذا بفضل مسعاك يا دادة جميلة ، وهذه هى المائتا ريال ، إنك تستحقين ألفين !

ـــ شكراً يا شعبان يا بنى ، ولكن المهر ، المهر يا شعبان .

ـــ المهر ؟ صحيح المهر ماذا يريدون ؟

ـــ يريدون ثلاثة آلاف ريال ، ولكنه لا يكفى فى الواقع لإصبع من أصابع قدميها .

ـــ الحقيقة يا دادة جميلة أن هذا مبلغ كبير ، ولكنه فدى.. بدرية الحبيبة .

وكانت ليلة الزفاف من ليالى ألف ليلة ، ودخلت بدرية العروس تتضوأ جمالا وشباباً وفتنة ديوان عم شعبان لتحيله جنة

صغيرة يفيض منها العطر والشذى على صحراء حياته ، فيغمرها بالبشر والحبور . وتبعها يوماً أخوها الصغير اليتيم « محمود » ليكون فى رعاية عم شعبان . وذاق عم شعبان بعد طول الحرمان كؤوس السعادة مليئة ، واحتسى أكواب الهناءة مترعة .

وفى عصر يوم قائظ خطا محمود الصغير إلى حيث يجلس صهره عم شعبان متظرفاً متلطفاً وأعرب له عن رغبته فى أن يشترى له « حماراً » !

— حمار يا محمود ؟ أبشر أبشر ، بكرة يأتيك الحمار !

وفى السحر كان عم شعبان مشغولا بعملية حسابية بسيطة لم يكن يقدر لها أن تبهته حتى تبيض شفتاه ويصفر وجهه حزناً ويأساً ، فقد عرف أن ما أنفقه لتكاليف العرس والمهر وطلبات العروس قد بلغ ستة آلاف ريال أو تزيد .

وضرب عم شعبان كفاً بكف ، وأمضى ليلة نابغية لم يذق فيها طعم النوم .

ومضت بضعة أيام ودخل عم شعبان يوماً على زوجته الجميلة بدرية فتصنعت البكاء وأظهرت التجهم والغضب ! وساء عم شعبان أن تبكى بدرية فهتف : ماذا بك يا بنت ؟

— محمود ، أخى محمود !

— هل حصل له شىء ؟ هل انقصفت رقبته ؟

ــ إنك لم تحضر له الحمار ، نسيت الحمار !

ــ اسمعى يا بدرية أنا لست حماراً حتى أشترى لمحمود الحمار وأقفل المقهى بفضلك وبفضل أخيك .

ــ إذا لم تشتر لمحمود الحمار فسأغادر الدار وستندم على ذلك !

ــ لست بنادم أبداً ولكن لا تنسى أن تأخذى معك محموداً سهل الله لكم الطريق . . .

وانطلقت بدرية مع أخيها محمود إلى دار عمها ! وحينما عاد عم شعبان إلى داره بعد أن أوصل جهاز بدرية إلى دار عمها وشيعها بكلمة الطلاق ولم يمض على زواجه منها بضعة أشهر ، كان يحس براحة نفسية بالغة وكان يهمس لنفسه بأنه شجاع لم تجز عليه حيل النساء ولم يستذل لسلطانهن !

على أن الأيام التى قضاها بعد ذلك عم شعبان وحيداً ، والليالى التى سهرها فريداً تلفحه نار الحرمان ، قد ضيعت راحته النفسية الوقتية التى أحس بها عقب ثورة غضبه وفورة كبريائه ، وصار أعدى أعداء عم شعبان هم أصحاب الحمير وراكبيها ، فما رضى بعد ذلك قط أن يؤوى إلى مقهاه فى ليل أو نهار رجلا يأتيه على حمار . لقد كان الحمار سبب مأساة عم شعبان .

وبمرور السنوات أرجع عم شعبان ما نقص من ثروته

أضعافاً ، ولكنه لم يتزوج مرة ثانية ! فإذا سألته عن أسباب ذلك أجابك بادى الأسى ملوح المحيا : لا ياسيدى يفتح الله ! إن الزواج إفلاس قبل إنجاب الأولاد ، ومن يدرى فقد يطلب منى أخو العروس الثانية أن أشترى له سيارة لا حماراً ، ثم من يضمن لى أن تكون الزوجة الجديدة لطيفة حلوة زى بدرية ، الله يذكرها بالخير ؟ ؟ وتطبق الذكريات على عم شعبان وتنحدر من عينيه بالرغم منه دمعتان كبيرتان . . .

عاصفــــة

كان القدر هازئاً من « سميرة» حين اختار لها زوجها الشيخ الذى ارتضاه لها عمها لغناه الوافر وجاهه العريض، ولكى يتخلص من شبح ابنة أخيه اليتيمة فى داره حيث تثقل على سمعه كل يوم شكاوى زوجه منها التى ما فتئت تكيد لها حتى وسدتها أحضان عريسها الشيخ !

كانت سميرة فتاة بهية الطلعة ، وديعة السمات ، رشيقة الجسم ، مكتملة الأنوثة ! لذلك لم يكن عبثاً أن نقول إن القدر كان ساخراً منها مر السخرية وهو يقدمها طعاماً ناضجاً لزوجها الشيخ « نعيم » !

ورضيت سميرة بما قدر لها ، وقنعت أن تعيش زوجة لشيخ نيّف على السبعين ، وهى ابنة العشرين !

رضيت أن تنسى حرارة الصبا فى برد الشيخوخة !

وكان الشيخ حفيًّا بها ، سعيداً بمعاشرتها ، يرى فيها هبة الأقدار لشيخوخته المصحرة ، ولكنه كان غيوراً عليها أشد الغيرة ، فما يحس منها بوادر مرح إلا لمح فيه طيف ثورة على نظام حياته الرتيب ، وما أطلت من نافذة إلا طار قلبه شعاعاً ! يا لها

من لعوب ! إنها تبحث عن الشباب ولا ترى فى شخصه إلا طيف الغابر المولى !

وكان يساكن الشيخ فى داره الرحبة الفسيحة أخوه « كمال » وهو شاب يبدو عليه التقى والورع ، أكمل مرحلة الدراسة ، ثم تفرغ لتلقى علوم الدين على أيدى كبار المشايخ فى المسجد الحرام !

وقبل أن يتزوج الشيخ كان لكمال أن يحلّ فى أى موضع ، وأن يتجوّل فى أى مكان من الدار ، وأن يشارك أخاه الشيخ طعامه وشرابه ؛ أما بعد أن تزوج أخوه فقد التزم راضياً الدور السفلىّ من الدار ليتمتع أخوه وزوجه بباقى المنزل الكبير ذى الأدوار الأربعة ، على أن يأتيه طعامه فى إبانه ، وإن كانت امرأة أخيه لم تحتجب عنه ، فإنه يلاقيها فى كثير من الأحيان ، وذلك حينما يستدعيه الشيخ لأمر من الأمور ، فيقضى بعض الوقت مع الشيخ وزوجه فى جو تحوطه الأنسة ، ثم يستأذن ويعود إلى غرفته فى دوره السفلى ليعكف على دروسه التى اختارها كى تهيئه للتدريس مستقبلا كواحد من أساتذته الكبار الأجلاء !

واشتغل قلب الشيخ نعيم بحب زوجه ، فما يكاد يخرج حتى يعود إليها ملتهب العاطفة ، وما إن يهصر عودها اللدن حتى تثور شكوكه فيفسر كل نظرة لها تفسيراً خاطئا ، فهى تارة تنفر من لمساته ،

وتارة تشمئز من قبلاته ، ومرة تتحاشى قربه ! إنها تدخر شبابها لفتى الأحلام الذى لا بد أنه متربع عرش قلبها ، ولا بد أنها قد اختارته أحد شبان عائلتها يوم يقضى نحبه فترثه وتستحوذ على ثروته الطائلة التى تزيد من رغبة خاطبيها !

وعذبت الشيخ هذه الخواطر ، وهدت كيانه ، فما يستقر له قرار ولا يهدأ له بال . إن هذه الفتاة المتفجرة الأنوثة ليست عنده إلا متاعاً مستعاراً وهبة ستستردها الحياة لتمتعها بالشباب والأمل وتغذيها بالصبوة والمتعة !

وأخذ يحدس فى كل رغباتها أنها تهدف منها إلى الاحتياز والتملك كى تحصل على أكبر قدر ممكن من الثراء المستقبل !

وحينما ألهمته هذا غزيرته راح يضيق على سميرة ، فبعد أن كانت رغباتها ملباة مستجابة ، أصبحت بعيدة ممتنعة . وبعد أن كان كل همه الترفيه عنها وإتاحة كل فرص النعيم لها ، أصبحت أمة من الإماء يسومها سوء العذاب ، وتمتد إليها يده بالعصا فيضربها حتى يتعالى نشيجها !

أما النوافذ فقد حرّم عليها أن تطل منها ، وإلا كانت سبباً من أسباب إهانتها وعقابها !

وراع الشيخ أن زوجه سميرة هدأت واستكانت ، وأنى لها أن تتمرد وتثور وهى التى ليس لها من مأوى غير دار عمها الذى

ألقى بها مختاراً إلى هذا الجحيم ! . . .

وتمادى الشيخ فى إهانة سميرة ففرض عليها ألا تتحدث البتة إلى أخيه كمال . لقد خيل إليه مرة أنها تخالسه نظرات الإعجاب ومن ثم كان حرمانها من محادثته جزاء وفاقاً على ما أساءت من أدب وما اقترفت من جرم !

أليس كمال شاباً تتمشى فيه دماء الشباب ، وهى شابة ، فماذا بعد النظر والحديث غير اللقاء والغرام !

ورغب إلى أخيه كمال أن يتزوج ، ولكنه اعتذر برغبته فى التفرغ لدروسه تفرغاً كاملا !

ولم يعجبه بالطبع اعتذار كمال !

وقرر ألا يستدعى كمالا إليه إلا فى النادر حتى لا يمكنه هو الآخر من النظر إلى زوجه الصبية المتحرقة شوقاً إليه !

وكانت سميرة تخجل كثيراً وتحتقر نفسها حينما كان زوجها يطلب إليه أخاه وهى فى حضرته ، فيضطر كمال أن يحادثها ، ومن ثم كانت تتشاغل عنه فلا تجيب ، حتى لا تثير حفيظة زوجها الشيخ الذى تأكله الغيرة أكلا وتذيبه فى أتون مستعر ، ولكن ذلك لم يعن كمالا الشاب التقى الذى يرى فى أخيه الشيخ نعيم والداً ثانياً له ، وهيهات أن توسوس له نفسه بالإثم أو يتدسس إلى خوالجه وأحاسيسه التفكير فى زوجته حتى ولو كانت حورية

انبثقت عنها الجنان !

وتصرّمت سنوات !

ومرض الشيخ نعيم مرضاً خطيراً ألزمه السرير ، ولازمته زوجه ملازمة الظل ، تمرّضه وتمدّه بالعلاج فى أوقاته المتباينة، كما رأى أخوه كمال أن من واجب الوفاء لأخيه أن يظل أكثر أوقاته بجانب سريره يسليه بروائع القصص ويسرد عليه النكات المستملحة بغية التسرية عنه ، وإدخال الفرح إلى قلبه ، وكان إذا رأى من أخيه المريض تجهماً وانقباضاً فسره على أنه قسوة المرض ووطأة الداء ، فما كان ليدور بخلده قط أن أخاه يخشى من شبابه على زوجه ، أو يشك فى صدق طويته ونزاهة سريرته الطيبة . ولكن الواقع أن الشيخ كان يلتظى من الغيرة بحمى قاسية تفوق حمى المرض ، ولم يجد بدًّا من أن يطلب إلى كمال أن يكف عن مسامرته بقصصه ونكاته ، لأن رفاهة حسه لم تعد تطيق حتى مجرد الهمس ! . . . ولقد صدق الشيخ فإن كثرة انفعالاته زادت من وبال مرضه فنحل بدنه وابيضت شفتاه وغارت عيناه وأصبح لا يتناول طعاماً غير الماء والحساء !

ومع هذا فإن زوجه لم تتوان لحظة عن مداواته وتلبية طلباته !

وأحس الشيخ يوماً بثقل الداء، وحينئذ استدعى إليه مسجل الوصايا ، بعد أن استبعد من مجلسه زوجه وأخاه ، فوصّى بما

أراد ، وأشهد على ما أوصى به ، وطلب من المسجل أن يكتم وصيته فلا يعرف أحد مضمونها إلا بعد وفاته !

وكان كل يوم يمرّ على الشيخ نعيم يدنيه من القبر خطوات ، على أن ما استجد عليه بعد أن أثبت وصيته هو أن ملامحه قد اكتسبت صرامة ما كانت تصبغ وجهه من قبل ، وقسوة ما اكتست بها ملامحه كما اكتست بها الآن !

وحدث ليلة أن اشتدت عليه نوبة من نوبات المرض ، فصرخ من الألم ، وخنقته العبرات ، وسرعان ما أسعفه الأخ والزوج بالدواء وبادراه العناية . . . وبعد ذلك بقليل وثبت الزوجة إلى غرفة مجاورة وراحت تنشج فيها نشيجاً متدفقاً ولكنه مكتوم !

وأحس كمال بالثورة العاطفية ، ثورة الحنان التى تعتلج فى أعماق سميرة رثاء وعطفاً على زوجها الشيخ ، فخف إليها فى الغرفة المجاورة مواسياً وموصياً إياها بالصبر وموحياً إليها العزاء حتى لا تشعر الشيخ بقرب منيته ودنوّ أجله . وكان الشيخ لحظتها مغمض العينين فى شبه إغماء . . . ولكن ما إن فتح عينيه فأبصر نفسه وحيداً فى الغرفة حتى دارت به الأرض وقفزت إلى ذهنه المريض المكدود وساوس غيرته من جديد ، وتبادر إلى سمعه همس ناعم فى الحجرة المجاورة . . . إنهما يتبادلان

العناق والقبلات ، وهما منه على مسافة خطوات !

يا لهما من آثمين !

أهكذا وهو لم يمت بعد تصل بهما القحة ويتوغل فيهما الفجور ؟ !

ألا تباً لهما وقبحاً لما يأتيانه من فعل ذميم تمجه واجبات الإنسانية . . . ما أعظم ما يجترمانه فى حق شيخ بائس مريض هما كل ما له فى الدنيا من أهل وأحبة ، ولكنهما الآن يتآمران عليه ، وسينعمان بعد موته بلا شك بحياة زوجية هانئة . . . يا للشقيين !

وطال الهمس والتناجى . . وأحس الشيخ بالثورة تتأجج فى أحنائه ، وأمدّه الغضب الجائح والغيرة العاصفة بشىء من القوة والعزم . . فأحس بنفسه يتحامل ويهبط من السرير ، ثم مشى زاحفاً ، وبكل تؤدة وهدوء ، وهو يكتّم أنفاسه ، ولا تكاد تبدر منه حركة ، أو يأتى بنأمة ، حتى كان يقف قبالتهما تجاه الباب ، ومن ثم رآهما رأى العين !

كانت سميرة جالسة على كنبة فى ركن من الغرفة ، وكان كمال واقفاً بجانبها ويداه تربتان كتفيها فى حنو بالغ .

هنالك اسودت الدنيا فى عينى الشيخ ، وهالته — كما صوّر له الوهم — هذه الصورة البشعة من صور العقوق الشاذ التى طالما

مثلها له خياله ، فإذا بالحقيقة لا تكاد تختلف عما صور الخيال الآثم ! . . . .

وندت عن الشيخ آهة ، وتبعتها صرخة ذُعرَ لها الأخ والزوج ، ولم يسمعا من كلام الشيخ الذى بدأ يقتتل على شفتيه ضعيفاً متهافتاً غير قوله : لقد فعلتماها حقا ولكننى ثأرت لنفسى ! . . .

وانطرح على أرض الغرفة ثم أسلم الروح !

* * *

لم يعرف كمال وسميرة سر ما عناه الشيخ نعيم بكلامه إلا بعد أن تبينا ما احتوته وصية الشيخ المتوفى من حرمانهما حق ميراثه وإيصائه بكل ثروته الضخمة للفقراء والمساكين وأعمال البر !

وعادت سميرة إلى دار عمها ، ولكن بعد أن غادرتها زوجه إلى غير ميعاد ! أما كمال فما زال حتى الآن طالب علم بالمسجد الحرام ، وما هجس فى ذهنه قط أن يخلف أخاه فى زواجه بسميرة.. إنه ما زال يعتبره والده الثانى الذى اختطفه الموت فحاشا أن يسىء إلى ذكراه !

وكان يثقل على ضميره كثيراً ما ساور الشيخ من ظنون خاطئة ، فيحمل نفسه ثقل الإصر الذى استدنى أجل الشيخ ! ..

وتفهق نفسه بالشجون ، فيرفع كفيه إلى السماء قارئاً الفاتحة على روح أخيه وداعياً له أن يتغمده الله بالرحمات ! !

البطـــل

كان « إبراهيم » يسير فى طليعة الطلاب وهم يذرعون شوارع مكة فى ضحوة لم تكن لتستبين من غبار يكاد يختنق له الناس ؛ لقد خرجت كل الطوائف فى مظاهرة عامة تهتف : لا وطن لليهود فى فلسطين ، فلسطين بلاد العرب ، دماؤنا فداك يا فلسطين !

وسار إبراهيم وهو يصرخ بهذا الهتاف ويردده، على صدى صوته الجهورى ، من حوله من أبناء مدرسته الذين ألهبتهم الحماسة ؛ كان يردده وفى نفسه ثقة ، وفى قلبه اطمئنان أنه يعنى ما يقول، فلا يلفظ كلاماً مردداً كالببغاء ! صرخ إبراهيم: دماؤنا تفديك يا فلسطين ! دمى فداك يا وطن العروبة !

وانتهت المظاهرة ، وعاود السكون المدينة، وهدأت الأصوات فلا تسمع همساً ولا تحس لأحد ركزاً ، وأوى الناس إلى مضاجعهم وبقى إبراهيم يذود النوم عن عينيه ليتوافر على مذاكرة دروسه فى امتحانه الثانوى الذى هيأ نفسه بعده كى يبتعث إلى مصر ، ليعود بعد ذلك طبيباً يخدم مرضى بلاده ، ويبعث بطمأنينة الشفاء إلى أجسامهم المهيضة .

وفتحت أمه عليه باب غرفته وهمست : كفى سهداً يا إبراهيم ، لقد أطلت الليلة مذاكرتك ، فأرح جفنيك فإنك لا تفيد من المذاكرة مع هذا السهاد الطويل . وهتف إبراهيم بها مرتفقاً : لا عليك يا أماه ! فإنني قد تعودت السهر حتى لم أعد أطيق أن آوى إلى مضجعى مبكراً .

وأجابته أمه : ولكنك الليلة قد أطلت كثيراً ، إن الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل . وابتسم إبراهيم وهو يجيبها : سأقوم بعد قليل يا أماه ! فعودى إلى سريرك فأنت أولى بالراحة منى !

وعادت الأم تحمل هم سهر إبراهيم ، أما هو فعاد إلى كتبه يقلب فيها ، وكان كلما هَمّ أن يذاكر قفزت إلى ذهنه كلمة ذات ستة أحرف كأنما كتبت بدم قلبه : « فلسطين » !

إنه يعرف عن فلسطين كثيراً ، يعرف أنها بلد عربى معرق فى عروبته ، ولكن أحقاً قد بيعت أكثر أراضيه لأحقر شعوب الأرض جنساً ! بيع لليهود ، فاستباحوا ثراه ، وأذلوا أبناءه ، وعمروا الأرض لهم ضياعاً وقصوراً ليؤسسوا لهم وطناً ويقيموا دولة !

وكيف تسمح للعرب الأقحاح وطنيتهم وعروبتهم أن يدعوا هذه الشرذمة القليلة العدد والعدة يستشرى فسادها بين ظهرانيهم وتتذأب وترتع فى بلادهم ؟ .

كيف هانت على أبناء فلسطين ديارهم فباعوا أكثرها بالثمن

البخس والقيمة المركوسة ، باعوها بالدراهم المعدودة .

مساكين هؤلاء الذين ظنوا فى ذهب اليهود لهم خيراً فملكوهم أراضيهم حتى أصبحوا قوة يحسب لها حسابها ، وأصبحوا يطالبونهم بالجلاء عن ديارهم وهم الطارئون الدخلاء .

وكان إبراهيم كلما حاول أن يذكر أفلت منه حبل إرادته وغمرته الوساوس والأفكار ، فضاع فى غمارها ما يحشد من ذهن وتفكير لاستظهار دروسه واستذكار واجباته !

وانقضى الليل إلا أقله ، ووثب إبراهيم إلى فراشه ، ولكن بعد أن أزمع أمراً وقرر خطة سيكون لها أثرها فى مستقبله !

إن مأساة فلسطين قد نقشت فى قلبه بحروفها النارية ، فهيهات أن ينسى أنه فرد فى الوطن العربى الذى منه فلسطين التى استباحها اليهود وغدروا بأهلها التعساء .

ونجح إبراهيم فى امتحانه ، وشد ما عجبت أمه حينما رأت أنه قرر أن يلتحق بالمدرسة العسكرية لينتظم فى سلك الجيش ، وهبت عليها نغمة فلسطين تتراقص من فم إبراهيم ، ولكنها لم تأبه لها ، فقد كان أملها أن يستمر إبراهيم فيما ندب له أحلامها من قبل ، فيسافر إلى الخارج ليعود بعد طبيباً . وحينما أخبرها إبراهيم أن مستقبله سيكون طبيباً ولكنه سيعالج جراح فلسطين ، كان جوابها : وماذا تعمل يا بنى لفلسطين وأنت فرد ، وجهود

الفرد ضائعة ! ولكن إبراهيم الذى صمم على أن يكون أحد أفراد جيش الإنقاذ، جيش الخلاص، لم يجد بداً من أن يجيب أمه : إننى حقاً فرد ، ولكن من أمة يشعر أبناؤها بعظم التبعة وثقل المسؤولية إزاء أبناء عم لهم يسامون الخسف ويساقون إلى الهوان . إننى فرد من أمة يحلو لها الكفاح ويطيب لها الجهاد يوم يدعو الداعى إلى خوض غمار الحرب ضد الغاصب الباغى .

وقويت شوكة اليهود وزاد مصاب العرب بهم . . .

ومر ركب الزمن سريعاً ليجعل من طالب الأمس الذى يهتف فى إيمان عميق بحقوق فلسطين ضابطاً صنديداً تأتمر بأمره ثلة من الجنود الشجعان . نعم تحقق الحلم الغارب للفتى إبراهيم الذى أيقظت روحه مظاهرة الأمس ، فإذا به على رصد من معركة اليوم .

وتوالت الأنباء تروى ألوان الفظائع التى يرتكبها اليهود ضد أبناء المدن والقرى من العزل الآمنين ، أهالى فلسطين . كانت فظائع تقشعر لها الأبدان ، ومآسى يستثار لها قلب الجبان ، فكيف بالأبطال الكماة الذين نذروا دمهم فداء لاستنقاذ فلسطين واستخلاصها من براثن المعتدين !

وكان إبراهيم مذياع الحوادث وراوية أنباء فلسطين فى الجيش . كان يتتبع كل الأخبار ، ويستقصى دقيق الأحداث

وجليلها ، ليسرد كل ذلك على مسامع إخوانه من الضباط مستثيراً حميتهم ، موقداً نار غضبهم ، مظهراً لهم شوقه الدائم إلى الجهاد المقدس . . . وإن كانوا لا يقلون عنه شوقاً إلى الموقعة الحاسمة التي يستطيعون أن يستخلصوا بها دياراً هي من أقطار العروبة بمنزلة القلب من الجسد .

وأخيراً صاح النفير بأبناء يعرب أن هبوا لإنقاذ فلسطين ، فقد حاقت بها شرور الأوغاد من أبناء يهوذا المارقين الغاصبين.

وسار الضابط إبراهيم بجنوده في طليعة الفرقة النظامية المجندة لحرب اليهود واستنقاذ فلسطين ، ووصل إلى الميدان .

ولم تكن التجربة قاسية على إبراهيم وهو يجول في حومة الوغى والقنابل تتفجر حواليه والرصاص يئز في أذنيه ، ولكن اسم فلسطين كان لا ينسيه هتافاً عميقاً صدر من أمه وهي تودعه باكية : إنني أخشى ألا تعود يا إبراهيم ، وما لي ، ولا لإخوتك غناء عنك بأخيك الصغير ؟ وجوابه لها وهو يقول : لخير لي ألا أعود يا أماه ، إذا كنت لم أقض من جهادي وطراً ولم أشف من أحقر الأجناس غليلا ، وحينئذ غمرته بدعواتها وهي غارقة في سيل من الدموع .

كان منظر هذه العجوز الحنون يتراءى لإبراهيم وهو يصوب مدفعه القوي إلى الأعداء ، كما يتراءى له في هجماته القصار

أحلاماً تهدهده، وقد عاد إلى أمه ظافراً منصوراً ، يلثم يدها فى حنان دافق ، وهى تبارك ما قدمه من كفاح رائع وبطولة فريدة. وأبدى إبراهيم فى الميدان من ضروب الفروسية وفنون البطولة ما أدهش رؤساءه وما جعله ملحوظاً بين أقرانه .

ولكن ذلك جعله هدفاً لحملات شديدة من معسكر الأعداء، فقد أحس هذا المعسكر أن الروح المعنوية التى يضفيها وجود الضابط إبراهيم على رأس كتيبته تكون وحدها فيلقاً قوياً وسداً منيعاً . . . ونجح الأعداء فى أن يصيبوا البطل بنيرانهم ! فى فجر أحد الأيام ، وفى أعقاب ليلة حالكة ، استعر لظاها بين الفريقين ، وكان إبراهيم يتقدم جنوده زاحفاً ينوى القيام معهم بحركة تطويق ، إذا بقنبلة يسطع ضوؤها ، وتصيب شظية منها البطل فى يده اليمنى فلا يستطيع أن يحركها ، ويشاء القدر أن يكبله ، فإذا برصاصة صوبها جندى من جنود الأعداء تخترق كتفه اليسرى ، ومع هذا فإنه لم يتقهقر راجعاً ، بل ظل يسير زاحفاً موهماً أجناده أنه لم يصب الإصابة التى تمنعه من تأدية واجبه .

ونقل إبراهيم إلى أحد المستشفيات العسكرية بالقاهرة ، وحينما كان يتماثل للشفاء من جراحاته ، كان القدر يسوق إليه آلم نبأ سمعته أذناه : إن العرب قد عقدوا هدنة ، فلا قتال ! وصرخ

من أعماقه : ألا إنها للداهية الدهياء والنكبة الخرساء! ألا إنها لبداية التخذيل فقبحاً للهدنة من طريق يلجأ إليه أحرار العرب وهم الذين قد أظهرهم الله على عدوهم ، ولا ريب أنهم سيبوءون منه بغضب ومقت كبير .

وكان حظه السعيد قد ساق إليه ، وهو فى مستشفاه ، ملاكاً يرتدى ثياب ممرضة متطوعة حسناء . إنها ليلى ابنة إحدى الأسر الكريمة ، وقد تطوعت لتؤدى واجبها فى العناية بالأبطال من جرحى الميدان .

وقد راعها فى إبراهيم فتوة واضحة ورجولة فارهة ، فسرعان ما عقد الحب بين قلبيهما ، وتعاهدا على الزواج بعد انتهاء الحملة وتطهير فلسطين .

وكانت ليلى مغتبطة لنبأ الهدنة حينما همست به إلى إبراهيم ، فهو قد يعجل بزواجهما ويبارك حبهما ، ولكنها سرعان ما عرفت أى ألم كمين أثارت فى أعماقه .

وشفى إبراهيم ، ولكن لا ليعقد على فتاته ، بل ليعود إلى الميدان يتطلع أنباء المعركة القادمة لا سيما أن اليهود أقدموا على بعض الأعمال الخبيثة التى تؤدى إلى خرق الهدنة واستئناف القتال .

وابتهج إبراهيم ، فإن يوم عودته إلى الميدان كان موعد

العرب فى معاودة الهجوم ، وإن تكن البشائر المتألقة قد غابت كثيراً فى غمار المستقبل الغامض للانتصار الذى لاح ، وسرعان ما تبخرت دلائله نتيجة ما خدع به زعماء العرب من هدنة لم يفد منها سوى عدوهم ومن يحمون ظهورهم من أبالسة المستعمرين .

وعاد إبراهيم إلى قتال العدو أمضى ما يكون عزيمة ، وأعظم ما يكون أملاً فى النصر !

ولكن القدر لم يشفق على إبراهيم ، ففجأه بنبأ قاصم لم يقل عن النبأ الذى تلقاه بالقاهرة حينما أبرمت الهدنة المشؤومة . . كان النبأ ينعى إليه أمه الرؤوم التى وثبت هواجسها يوم توديعه ووعدها باللقاء يوم النصر . . واستطار إبراهيم ألماً وحزناً ، وبكى متأثراً موجعاً ، وكانت رسالة النبأ تعلن إليه أن إخوته قد أصبحوا تحت رحمة القدر بعد وفاة والدتهم التى كانت للجميع أمًّا وأباً .

فهل يعود إبراهيم إلى أسرته الضعيفة كما نصحه زملاؤه ورؤساؤه ، أو يستمر فى كفاحه المقدس ويتركهم فى حمى المولى الرحيم .

وكان هذا ما استقر عليه عزم إبراهيم برغم أنه يشعر نحو هؤلاء الإخوة البؤساء بعاطفة من الحنان والشوق تؤود قلبه الكليم . . لا سيما بعد فقدهم أمهم الحنون . واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين .

ولكن إبراهيم أصرّ فى إحدى الليالى على مهاجمة المستعمرة التى تجابههم يبتغى من الليل ستراً . وزحف بجنوده حتى كانت المستعمرة منهم قاب قوسين أو أدنى .

وتنبه اليهود الجبناء ، ولكن بعد أن كانت النيران تصطلمهم أى اصطلام ، وتنسف مستعمرتهم نسفاً ؛ وتقهقروا مسرعين ، وتعقبهم إبراهيم يصليهم من مدفعه قذائف لا تخطئ الهدف ولا تبقى أو تذر .

وأوغل إبراهيم فى مطاردتهم ، و بعد عن جنوده الذين شغلوا بتطهير المستعمرة ، وتصفية عتادها .

وشعر المطاردون أنهم إزاء فرد واحد يتعقبهم دون أى كلل . وأثارهم ذلك وأمضهم ، فعادوا متكأكئين عليه .

ولم يفل ذلك من عزيمة البطل المنفرد ، بل راح يصب عليهم من مدفعه نيراناً حامية ، ولكن المدفع سرعان ما صمت وخرس إلى الأبد فقد نفدت ذخيرته ، ونضب عتاده .

وانهال الرصاص على البطل من كل صوب ، وحصره الهاربون وهو أعزل وحيد ، واقترب منه أحدهم وبيده قنبلة يدوية من النوع السريع الانفجار ؛ وفى الوقت الذى كانت القنبلة تطلق فيه صوب البطل إبراهيم كان هو بدوره ينزل بمدفعه ، وقد أمسك به بكلتا يديه على أم رأس خصمه الذى

أطلق القنبلة فيفجره تفجيراً .

وأصابت القنبلة البطل .

وابتسم إبراهيم فقد أدى واجبه . ابتسم وهتف راضياً :
دماؤنا فداؤك يا فلسطين ! دمي يفديك يا وطن العروبة !

وصمت إبراهيم المقدام ، كما صمت مدفعه الجبار من
قبل . لقد استشهد البطل ! . . .

الموظف الكبير

تفتحت الحياة أمام عينيه زهرات فيها عطر وعبير وفيها ألق ومتاع . نعم فقد ولد « علىّ » وفى فمه ملعقة من ذهب ، وشب فى كنف والد يراه النور لعينيه والروح لجسمه . . . يسرع فى تلبية رغباته ولو كان تحقيقها أشبه بالمستحيل ، ويألم للشوكة تشوكه ويود لو استطاع أن يهبه من عمره سنين !

وأخيراً جاء اليوم الذى رأى فيه علىٌّ نفسه وحيداً فريداً فى خضم الحياة ، فقد توفى والده وترك له ثروة كبيرة من الأحزان ! أما المال والنشب فقد أنفقه كله علاجاً لوالده المريض الذى لم ينفعه علاج من سم المنية الناقع !

وحار على لقسوة الأيام ، وفكر ماذا يعمل ؟ إن عليه أن يشتغل ليعيش ، فالحياة قاسية وهى لا ترحم عزيز قوم ذل !

وطرق أبواب أصدقاء والده ممن كانت له عليهم أيد بيضاء وخدمات كبرى . . . ولكنهم أرجعوه إلى حيرة الواقع الكئيب ولؤمه ؛ لقد شيعه كل منهم بحفنة من الوعود !

وكان أحسنهم رداًّ الشيخ « حسان » الذى قال له : إن كل ما أستطيع أن أعمله لك يا على هو أن أوظفك فى إحدى

الوظائف المتواضعة فى العمل الحكومى الذى أديره . . فإن راق لك ذلك فتعال إلى صبح الغد لأنفذ لك إجراءات التعيين !

وعصر ذهنه يفكر . أليس ثمة حلّ أيسر وأحسن من هذا ؟ أيقبل وهو ابن المرحوم سامى التاجر الكبير والثرى العظيم وظيفة تافهة ؟ أم ينتظر أن تواتيه فرصة أثمن ؟ !

واختار أخيراً أن يقبل هذه الوظيفة على تواضعها ، وفى إمكانه أن يهتبل سوانح الفرص الأخرى المواتية !

* * *

وأقبل علىٌّ على عمله فى نشاط غير عادى . . . بذّ به أكثر زملائه ؛ وفى مدة وجيزة قفز مرتبه إلى الضعف لما أبداه من جهود صادقة لفتت إليه الأنظار !

ودبت عقارب الحسد فى صدور زملائه فكادوا له ما شاء لهم أن يكيدوا ، وأظهروا للرئيس الأعلى للعمل « جميل » أن علياً محسوب لحسان ، فهو لذلك يرعاه ويطلب له كل يوم ترقية جديدة وأنه لا يزيد عنهم كفاية .

وأحس على بما يحاك له فى الخفاء فلم يثن ذلك من عزيمته ولم يثبط من همته ، بل ظل كما هو مثال الموظف النشيط المهذب !

ومرت سنون ! . . .

ولكن عجلة الحظ وقفت بصاحبنا كموظف متوسط لايكاد مرتبه البسيط أن يقوم بأوده ويؤمن عيشه !

وتألم على وسئم !

أسأمه الجو الذى يعيش فيه ، وزاد من بلواه أن أحيل رئيسه الشيخ حسان إلى التقاعد وهو الذى كان وجوده يخفف عنه كثيراً من أعباء العيش بما يلاقيه منه من حسن تقدير لشعوره وجهوده ! وابتلى على بعده برئيس من زملائه أذاقه مرارة الحياة ألواناً ! . . .

وزاره مرة « حسنى » أحد أصدقائه . . . وهالته الحالة المتواضعة التى تغمر صديقه ، ومن ثم همس لعلىّ : ما بالك يا رجل لم تصعد ؟ تحرك يا أخى فالخير فى أن تتحرك !

وسأله على : ولكن كيف أتحرك ؟ ومن أين أجد لنفسى عملاً خيراً من عملى ؟

وأجابه صاحبه : ليس ثمة ما يدعو إلى أن توجد لنفسك عملا أفضل ، ألست عازبا ؟

— بلى

— أليس لرئيسك الأكبر جميل أخت أو ابنة فى سن زواج ؟

— أظن أنه توجد لديه بنت . . . ولكننى أعتقد أنها عادية الجمال ! . . .

— لا عليك ! فالحياة تتطلب منك أن تتحرك وأن تتحرر

من مقاييس جمال الزوجة ما دام أن هناك ما يعوضها . . . تقدم إلى هذا الرئيس واخطب ابنته وسترى كيف تتغير بك الأحوال ! أما أن تظل كما أنت الآن فإن هذا معناه الانتحار بعينه !

ولقيت نصيحة حسنى من على أذناً صاغية وصادفت تربة صالحة ، ورحب الموظف الكبير بخطبة على . . . وتم الزواج فى حفل أنيق شائق تكفل بجميع مصاريفه والد العروس !

ودارت عجلة الحياة بعلىّ دورة سريعة ، فإذا برئيسه البغيض ينقل إلى عمل آخر ليجد نفسه هو متربعاً على كرسيه !

كانت هذه الخطوة الأولى !

أما الخطوة الثانية فأعقبتها بعد أشهر ، إذ طلب الموظف الكبير أن يعين له وكيل نظراً لكثرة ما يلقاه من إرهاق الأعمال ، ورشح عليًّا لوظيفة الوكيل ، وسرعان ما أجيب طلب الرئيس الكبير ، وعين على ولم يحتج واحد من الموظفين الصغار الذين اكتسحهم على اكتساحاً ذريًّا فى جولته الخاطفة ، خوفاً من بطش صهره الخطير . . . !

وجاءت الخطوة الثالثة فإذا بعلى يقتعد كرسى صهره جميل نفسه ، حيث انتقل هذا الصهر إلى وظيفة عليا تتقاصر دونها الأعناق !

وإذا بالحظ يبتسم له من جديد ، بل يضحك ويقهقه ،

فقد أصبح صاحب شأن عظيم وسمعة مدوية فى المجتمع ، يتقرب إليه الكثيرون ويخشون بأسه وسلطته !

نعم لقد أصبح على شيئاً كبيراً ، وأصبح من يريد مقابلته لا بد أن يبعث إليه ببطاقته مع الحاجب أو يلتمس موعداً من السكرتير !

وجاء مرة صديقه حسنى يلتمس الدخول ، فاعتذر له الحاجب بأن الرئيس فى لجنة مع كبار الموظفين وأن عليه أن يكرر الزيارة !

وكرر حسنى زيارته ، فإنه فى حاجة إلى أن ينشد عون صاحبه فى أمر يهمه !

ومرة ثالثة اعتذر الحاجب بأنه لا يستطيع أن يدخله إلا بعد انتظار طويل !

وجلس حسنى ينتظر حتى إذا فرغ الرئيس من مهامه أدخلت له بطاقة صديقه القديم !

وجاء الحاجب يقول لحسنى إن علياً متعب وهو يرجوه أن يؤجل الزيارة لفرصة أخرى !

وصعق حسنى وثار وعربد . . . ولكنه رضخ أخيراً للأمر الواقع !

وعاد للمرة الثالثة ، وهنا استقبله على استقبالا فاتراً بارداً

شعر معه حسنى بأنه ينشد عبثاً عون صاحبه ما دام قد ركبه كل هذا الغرور وتملكته كل هاته العجرفة ! . . . وخرج دون أن يبدى له حاجته . ولكن كما دارت الأيام طرداً لعلى فقد عادت فدارت عكساً ! . . . فقد توفى صهره جميل وأصيب هو بعد ذلك فى حادث سيارة ألزمه الدار كسيحاً ، وقضى سنوات فى داره يجتر ما جمعه من ثروة حتى تبددت ، كما تمزق من قبل رداؤه من الجاه والسيطرة، فلا أحد يزوره ولا ثمة من يسأل عنه ! وضغطته السنون العجاف ! . . .

وفى صبيحة أحد الأيام كان حسنى الذى شاء القدر أن يقفز به قفزة موفقة إلى مرتبة كبرى يخرج من داره ليركب سيارته إلى الوزارة ، حينما اعترضت طريقه إلى السيارة امرأة يسايرها طفل صغير سارع إليه يقدم له ورقة !

ودهش حسنى وهو يصعد النظر فى الورقة ويرجع البصر فى الإمضاء المرتعش . . . إنه صديقه القديم على يذكر له أنه قد أصبح يعيش جليس الدار نضو فقر ومتربة ، مع أنه يعول تسعة أفراد فيهم بنون وبنات، ويرجوه أن يمد له يد المساعدة فى إنجاز ما يستحقه نظاماً قبل الدولة من معاش تقاعدى !

ونظر حسنى إلى المرأة وهتف بها : أأنت زوج على؟ وأجابته فى انكسار : نعم وهذا ابنه !

وعرضت الحوادث على حسنى شريطاً من الذكريات ظهر له فيه صديقه على وهو يجلس مرة مع عشرات الموظفين الصغار لا يميزه عنهم شيء وهو يجيبه على سؤال : « نعم توجد لدى رئيسى ابنة ، ولكننى أعتقد أنها عادية الجمال » إذن فهذه هى الابنة التى جلبت السعا يوماً لعلى ! وتغير المنظر فتمثل على لحسنى وهو يجلس فى عظمة على كرسيه الفخم الدوار ، ثم وهو ينظر إليه من عل ويقول : « إن وقتى الثمين ليضيق هذه الأيام بالزيارات ، فلا تؤاخذ الحاجب إذا ما ردك مرتين » ، يوم أن غادره إلى غير رجعة ولم يذكر له غرضاً من زيارته !

وأخيراً تمثل له على وهو يجلس الآن فى غرفة باردة من منزل متواضع عتيق ويبعث بزوجه المسكينة التى تربت فى بيت عز وأبهة تحمل استعطافاً منه إلى صديقه حسنى يلتمس فيه أن يؤازره فى محنته بما يضمن له العيش !

وعجب حسنى لتقلبات الدهر وقسوة صروفه !

وسرعان ما مد يده للطفل الصغير بمبلغ كبير من المال قائلا له : أعط هذا لأبيك فهو دين له ، وقل له إن مسألة معاشه ستسوّى بعد أيام !

* * *

واستطاع حسنى أن يسوى راتب صاحبه تسوية عاجلة

حسنة ، ويبعث إليه من يخبره بذلك ويسلمه أول مرتب ، ولكنه لم يستطع أن يغالب غيظه القديم على «على» الذى أثاره يوماً أعنف إثارة وهو له صديق وفى ، فيزوره وهو الذى تناسى فى غمرة السلطان ما قد يكرثه به الزمان !

غرام فى لبنان . . .

٢٠ – ٧ – ٠٠٠

هذا هو لبنان الحبيب ، سبحانك ربى ! أفى الدنيا كل هذا الجمال ؟ لمَ يشقى الناس وهذى الجبال مخضرة مزهوة وهذى رحاب الحسن فتانة مزدانة . . ؟

ولكننى أوثر ألا أستفيض فى كلامى فقد أكون مبالغاً ، ففى الدنيا مجالات لجمال الطبيعة تفوق فى روعتها كما سمعت جمال لبنان ، ولكن مالى أنا العربى ومجالات الجمال الأخرى . . . إنه ليكفينى لبنان أصطاف فيه وأمتع النفس بمجاليه !

أبدأ مذكراتى الآن بعد أن استقر الجسم بعد الأين ، واستعذبت العين هذه الرؤى الساحرة ، وأمتعت الروح بمباهج الروح. ولست أدرى أتكون مذكراتى يومية أم أسبوعية أم شهرية؟ إنى لحريص على أن أدوّن كل مشاهداتى ، ولكن أنىّ لى الوقت وأنا أحب أن أغمر نفسى فى ينبوع هذا الجمال فأعب وأعب بعد تخيل وحرمان ؟ . . أريد أن أحيا بعد أن عشت أسير الوهم والخيال ، ولحظات الحياة الهانئة تعاش ولا تدوّن .

فندقنا هذا الجبلىّ فى « بحمدون » مترف مريح لا ترى فيه

إلا ابتساماً وجمالا ، وهذه الخادم اللطيفة « سلوى » إنها مثال الوداعة والرقة ! أما جمالها فيبعث الأسى لأنه جمال صارخ يدع النفس تتخيل مدى بؤس أهل هذه الفتاة الشرفاء الذين اضطرتهم الحاجة إلى أن تشتغل فتاتهم خادمة في فندق وهي أجدر بأن تكون ربة قصر باذخ .

لم أزل في وهلة المفاجأة بسحر لبنان، ولكنني حريص على ألا تفوتني من هذا السحر العذب نهلة أو تخطئني ومضة .

* * *

٢٧ — ٧ ...

صدق حدسي فما أنا بمطيق أن أوافيك أيتها المذكرات كل يوم أو كل ساعة ، فبحسبي أنني أعود إليك بعد أسبوع ، وبحسبي أن أسطر فيك ولو قليلا مما رأيت وسمعت .

لقد مضى علي أسبوع في لبنان ، ولكن أي أسبوع هو؟ إنه أسبوع حافل بالحركة والصخب على ما في لبنان من هدوء وروح .

لقد ذرعت ورفيقي في الرحلة « منصور » أرض لبنان ، أو على الأقل أهم ما ينبغي لمثلينا أن يذرعاه من أرضه ويتعرفا عليه من مجاليه . لقد زرنا « زحلة » و « صوفر » و « حمانا » و « شتورة » وغيرها وغيرها ، وذهبنا إلى الينابيع المختلفة ، ثم

صعدنا إلى الأرز حيث أعالى القمم ، فسلكنا إليه طريقاً يعلقنا فى الجو بالمصاعد الكهربائية بعد أن عُلـّقنا قبل فى ذرى الجبال بسيارتنا البويك .

أما سهراتنا الليلية فكانت فى مسارح « عاليه » نهبط إليها من بحمدون ، أو فى بحمدون نفسها حيث يجثم فندقنا الكبير .

كم هو لطيف رفيقى منصور لولا أنه يؤثر لو أمضى الليل كله فى المسارح وعلب الليل ؛ الأمر الذى يفسد علينا متعة النهار ، أو على الأقل متعة الاستمتاع بالصباح ، وما أجمل صباح لبنان !

وشىء آخر . . . إن صديقى يحب أن يسلك طريق المتعة المحظورة ، فهو كما يقول قد جاء لكى يستمتع بالحرية وينعم النفس بمباهج الجسد ، وهى كما يقول هنا سهلة ميسورة .

لم أوافق صديقى على رأيه وإن كان له أن يسلك أى طريق يشاء . . . أما أنا فبحسبى هذه المتع البريئة ، وهى كافية بأن تغرق نفسى فى معين من السحر لا ينضب .

* * *

٥ ـ ٨ . . .

توالت الأيام وأنا غارق فى تأملاتى سعيد بمتعى ، ولكننى أحس أن الأيام قد بدأت تتماثل . . . آه ! لقد بدأت أشعر

بالظمأ . . . نعم إننى فى ظمأ لا إلى المرأة ولكن إلى الحب .

إن مغانى الجمال شديدة الإثارة ، مسعرة للحوافز ، فكيف بى وأنا الذى أعشق الجمال وأقدّس مغانيه .

إن منصوراً لا يؤمن بالحب ، ولكنه يؤمن بالحافز الحسى ، وإنه ليعدد لى ما اصطاد من فتيات ومن صدنه من بائعات الهوى وعارضات المتعة، بغية أن يثير فى نفسى الشوق إلى هذا الشاطئ المجهول بالنسبة إلىّ ، ولكننى واثق من أنه يكلف نفسه شططاً، فما أنا بنازع إلى ما يصبو إليه ولو تزحزحت رواسى الأطواد .

أبيت أن أطاوع منصوراً ــ سامحه الله ــ فما أنا بمشتر جسداً يباع فى سوق النخاسة ومضيع فى سبيل اللهو الساقط كرامة وحفاظاً .

آه ! إننى أريد الحب فأنى لى أن أجده ؟

استبقيت اليوم عندى قليلا خادم الفندق سلوى ، يا لله ! كم هى جميلة هذه الفتاة ! ولكن ما أتعس حظها ! سألتها كم تتقاضى من أجر شهرى ؟ فكان جوابها أنه لا يزيد على الخمسين ليرة ، وأنها لولا الحاجة لما عملت فى وظيفتها هذه . ثم أوغلت فى حديثى فسألتها : لم لم تتزوج ، فأجابت : إنها مخطوبة ، ولكن خطيبها فقير ، وهو طالب عليه أن يقضى سنتين ريثما تستطيع

الظروف أن تهيئ له مجالا للكسب وإعفاءها من العمل .
لك الله يا سلوى فلو كنت من خضراء الدمن لكان لك فى مجالى الكسب شأن أى شأن !

إن سلوى مغاضبة رفيقى منصوراً ، فقد حاول مرة أن يختلس منها قبلة فصفعته وذهبت تبكى ، ولم يحل الأزمة سواى ، إذ نقدتها عشر ليرات كتعويض عما لحق بها من إهانة ، وقد رضيت بعد لأى .

ما زلت ظامئاً للحب ولا رىَّ أو شفاء .

* * *

١٢ — ٨ ...

كان أحد أصدقائى اللبنانيين بجدة واسمه « رشيد » قد أعطانى إلى شقيق له ببيروت يدعى « منير » رسالة توصية بصديقه الغريب الذى هو أنا . . . لم أكن بحاجة إلى أن يوصى علىّ ، ولكن رشيداً أصرّ على أن يزودنى بخطابه ، وها أنذا وقد مضت على الآن أسابيع ثلاثة لم ألتمس فيها السبيل إلى منزل منير أشعر اليوم بحاجة إلى أن أتعرف به .

وطرقت منزلا فى بيروت هو منزل منير ، وتهادى إلىّ شاب وسيم لا يزيد عمره على الخامسة والعشرين مرحباً فسألته : أهذا هو منزل الأستاذ منير ؟ فأجاب : أجل ، وأنا هو منير : أهلا

فيك يا خواجا !

لم أستغرب كلمة « خواجا » ، فهى هنا فى لبنان تستعمل بدلا من « أستاذ » تقريباً ، وسرعان ما أبرزت له كتاب شقيقه رشيد ، وتهلل وجهه وهو يتلو سطور الكتاب ، ثم زاد ترحيبه وهو يهتف : تفضل ، تكرم سيدى متى الوصول ؟

قلت إن الوصول كان منذ زمن ،ولكننى شغلت بمسائل مهمة ، فأسف لذلك ثم هتف : لقد كان الأولى أن تحل ضيفاً علينا ، فشكرته كثيراً ثم دلفت معه إلى الدار وجلسنا فى غرفة الاستقبال .

كان الشيء الذى يغمرنى شعور ارتياح لست أدرى مأتاه ، وإن كنت عرفته بعد قليل حينما أهلت علينا طلعة فتاة كانت مثالاً للجمال اللبنانى الصاعق ، وكدت أخرس عن رد تحيتها ومنير يقدمها لى : « أختى إلهام » وشريكتى الوحيدة فى الدار . قلت بعد لأى . أهلا وسهلا ، تشرفت يا آنسة . ودار الحديث عن رأيى فى لبنان وجباله ، فأفضيت إليهما برأيى وعيناى تختلسان النظر من حسن إلهام .

ولم يكن بدّ من أن أودع صاحبى على موعد للغداء فى داره ظهر الغد ، بعد أن ألح علىّ أن أتغدى لديه ، وأبقى سحابة اليوم ، فتمنعت مطاوعة لهاتف العقل الذى كان يلعنه هاتف القلب .

* * *

١٥ — ٨ ...

تعددت زياراتى لبيت منير !

وكان من أثرها أن شغفت حباً بإلهام .

نعم ، تعددت زياراتى لبيت منير ، وقد دعوته وأخته ، بعد أن حضرت مأدبته ، مرتين مرة فى عاليه ومرة فى بحمدون ، وكانا يستجيبان بعد تمنع ، أما البارحة فكانت دعوتى إياهما فى مسرح « البيسين » بعاليه . ولعل إلهام قد أحست بغريزة الأنثى أننى قد عدت صريع غرامها ، فحينما ضغطت يدها مودعاً ، بعد أن قضينا السهرة ، تعطفت فضغطت هى الأخرى على يدى متأثرة ، ولمعت عيناها لمعة حنان .

بنفسى أفديك يا فتاة لبنان !

لم أعد أرى منصوراً أو يرانى ، فهو فى شغل بمغامراته ، وأنا بدورى سعيد بحبى ، لقد وثق بى منير فكان يأتمننى فى الخروج بصحبة أخته ، وإن كنت أشعر أن وجوده وعدم وجوده سيان فى تقدم خطا العلاقة بينى وبين إلهام ، لأننى حيىٌ بطبيعتى وأخشى أن أكاشفها بحبى فأصدم فيها خفر العذراء . ثم ما جدوى مكاشفتى والفتاة قد تكون مخطوبة وأنا أهدف إلى الزواج !

أنا سعيد بحبى ؟ كلا إننى شقى ! لقد عرفت معنى السهر

وعرفت سر الضجر ! إن قلبى الرقيق قد أصبح نهباً لهذا الهوى العنيف وقد توزعت أفلاذه فى بيت منير .

* * *

٢٠ ــ ٨ ...

صارحت صديقى منصوراً اليوم بحبى لإلهام ، وسألته أن يجد حلا لهذه المشكلة إن استطاع .

وضحك منصور وهو يقول : وأخيراً وصلت يا « بطل » ؟ مرحى ! لو كنت قبلت نصيحتى منذ البدء لما تورطت فى حب أو غرام ، ولوجدت كل يوم غراماً جديداً يغنيك عن خيالاتك لا . . . لا تمتعض ودعنى أفكر لك الآن فى حل مناسب . . . آه تذكرت يا صديقى لم لم تتقدم لخطبة الفتاة . إن هذه هى الخطوة التى تحسم مشكلتك فإما موافقة وإما رفض .

وقاطعته هاتفاً : لا قدر الله أن يرفضوا .

ووجدت فعلا أن هذه هى أحسن خطوة ، وقررت أن أكتب فوراً إلى منير خاطباً شقيقته إلهام .

ورحت أسطر رسالة إلى منير خيل إلى برغم عنايتى بكتابتها أنها فاترة باردة وبعثت بها وبقيت منتظراً الرد .

إن هذا الرد سيقرر مصيرى ، فإما سعادة وإما شقاء . بربك يا منير كن قاضياً نزيهاً، فلا تصدر حكمك إلا بعد

تروّ بالغ وتفكير فى وضع رجل يكنّ لشقيقتك أقدس عاطفة ويعرض عليك أطهر صلة .

* * *

٢٥ ـ ٨ ـ ٠٠٠٠

لم يطل انتظارى فقد جاء الرد اليوم وهذا هو .

« أخى

أشكرك على الشعور الحسن وعلى الثقة الكريمة ، ويبلغ بى الحزن مداه حين أنبئك فى أسف بالغ أن رسالتك قد تأخرت يومين فقط ، فقد خطبت خلالهما إلهام لابن عمى « نذير » ، وليس فى مستطاعى تغيير الموقف بحال . ليتك سارعت بخطبتك فلقد كنت ستجدنى مجيباً طلبك ملبياً رغبتك أما الآن . . .

المخلص

منير

* * *

هأنذا أنظر جبال لبنان ومجاليه فإذا هى قاتمة مصحرة لا بهجة فيها ولا جمال !

سأسافر بعد الظهر فى طائرة اليوم . . . هأنذا أحزم حقائبى فوداعاً يا إلهام ، وداعاً . . . وداعاً !

حب بلا أمل

حبيبتى عفاف :

لست أدرى ما الذى استحث ذكرياتى الليلة فأحببت أن أسطر لك هذه الرسالة ؟ !

إنك ستقرئينها يا عفاف وستدهشين . . تدهشين أولا لأنك ستقرئين فى مطلعها كلمة حبيبتى . . هذه الكلمة التى لم تطرق سمعك منى قط ، والتى قد يكون لها فى إحساسك شعور غامض لا أحب أن أتصوره الآن ، فأدع لأحلامى تخيله ، وعسى أنه يرضى الأحلام !

وستدهشين ثانية حينما أقص عليك قصة غرامى بك وحبى إياك ، وهى قصة عفى عليها الزمن ، ولكننى آثرت أن أرويها ، إن لم يكن لأحد من الناس فلأروها لك أنت ، فما يعنينى أن يعلم بها أحد فى الوجود سواك !

قد تقولين ما بال هذا الإنسان يخترق كل هذه الحجب وينبش من الماضى ذكريات لم أعرفها ولا أتخيل لها كنهاً .

ولكنك بذلك تظلمين الواقع كثيراً يا عفاف ، وتظلمينى أكثر ! . . .

وعلى أية حال فإن كل ما تقولين لن يغير من الحقيقة شيئاً وقد أكون أنا مغفلا لعب بعقله الغرور . . . ولكن لا يا عفاف فقد كنت يوماً تحبيننى فلا تمارى !

هل دهشت الآن يا عفاف ؟ أؤكد لك أنك الآن شبه مصعوقة من الدهشة ! أنت أحببت ؟ متى وكيف ؟ ! وحينما يرتسم هذا التساؤل على شفتيك الرقيقتين الجميلتين هنالك لا أجد بداً من أن أجيبك ! ولكن بالله لا تسخرى منى يا عفاف فما أحب أن يسخر منى أحد ، وإن كنت أعتقد الآن أننى قد أصبح هدفاً لسخريتك !

ولكن لماذا أخشى سخريتك ؟ ! اسخرى منى ما شئت فلن يضيرنى ذلك فى شىء ! لقد سخر الزمان قبلك من رغائبى فلم لا تسخرين ؟

كان ذلك ونحن طفلان ، ولكن حبى بدأ ينمو وينمو حتى كنت أحياناً أفيق من نومى مذعوراً ، فقد كنت أحلم بك يقبلك غيرى أو تبادلين سواى عين الرضا ! وكم أسرّ حينما أثق بأننى كنت واهماً أحلم . وتحرك حبى يا عفاف عصر يوم جلست فيه مع والدك وأنت قبالتى ، وكانت صلة قرابتى بأبيك ، وصغر سنى – تقريباً – يتيحان لى أن ألقاك كثيراً وأن أبادلك الحديث على مشهد من أبيك وأمك وإخوتك وأسرتى ، فما كان للتقاليد حينئذ أن تحول دون محادثة عابرة ولقاء غير مريب !

ومن هنا نبت الحب فى قلبينا معاً ونما ! لا تسخرى ياعزيزتى فإنما أقرر حقيقة ماثلة لا يغيرها إنكارك إياها بعد أن مرت سنون وأعوام !

نعم كان ذلك فى عصر يوم راح فيه والدك يمتدح ذكائى ويثنى على خلائقى ويعجب للنبوغ المبكر الذى أبديته والذى كان موضع ثناء وإعجاب من يعرفهم من أساتذتى الكبار ، وكنت تصغين فى لذة ومرح لحديثه ، وكان ثناؤه يبعث فى نفسى غارب الأمل ، لا سيما أنه يلقى منك كل هذا الارتياح الذى لم تتمالكى معه نفسك أن تسألى والدك : أصحيح ما يقوله عنى أم هو مجاملة الأقارب لبعضهم ؟

وحينما أجابك : كلا ، يا عفاف ، إن كل حرف أنطق به لهو الحقيقة بعينها ، طفح وجهك النضير بشراً وقفز قلبى - بدوره - أملا وحبوراً !

وجاءت ليلة مأتم قريبنا حسين الشاب الذى فقدته أسرته وكان لها العائل الوحيد ! وصلت إليك مواسياً ، فهو قريبك ، ولكنى أعزى فى المنزل المجاور قريباته ، وكنت يومها وحيدة ، وكان الليل يزيد فى روعتك وسحرك . . . وتلقيتنى يا عفاف بالأحضان مأخوذة ذاهلة ، ورحت تلثمين خدىّ وجبهتى وأنت لا تدرين أنك تشعلين فى الصدر ناراً وفى القلب أواراً ، ولم

أبادلك الالتثام المحبب لسبب واحد هو أننى كنت غارقاً فى حلم أبيض لذيذ لا أملك معه حراكاً ولا آتى بنأمة ، وتلاشى الحلم سريعاً وتبدد وشيكاً ، فهأنذا أودعك إلى دار القريبات لتعزيتهن!

لقد أطلت ليلتها من عينيك تعبيرات من اللهفة والحنين . أكان تلهفك علىّ وحنينك إلىّ أم على قريبنا الراحل ؟ !

كلا ، أنا أعرف أن الميت لم يكن يعنيك كثيراً . لقد نطقت عيناك وتحركت شفتاك ، وكان هذا يكفينى ، ولكننى كنت مستغرقاً فى حلم ! كنت مستغرقاً فى حلم أضاعت رونقه طبيعتى الحيية وشعورى بالخجل الدائم ، عليه اللعنة !

وجاءت ليلة أخرى . . . كانت ليلة لهو برىء ، وكان المجلس النسائى عامراً بكل وجه صبيح ، وكل قوام رشيق . . . ولكن وجهك كان مصباح المجلس وقوامك الفتان كان مهوى نفوس الجميع . . . وجلست فى الغرفة المجاورة غير المستورة مع قريب لى ، صبيين يستخفهما المرح الغامر ، ويرنوان إلى ما يصطخب به المكان. ثم وقفت ترقصين وتتثنين وأنت ترتدين ملابس شاب تنكرية ، ورقصت معك قلوب ، ولكن قلبى كان أثملها بالفرحة ، كان يرقص بين أضلاعى ، وكأنه يضم فى حناياها وبين طيات شغافه ضمات متلاحقات روحك الشفاف وجسمك الغض الريانْ ! وكنت تخالسينى النظر الهامس مرات

لا حصر لها ، وكانت عيناى تفصحان وتعبران ! . . .
وسكرت ليلتها من فرحة الأحلام . سكرت حتى انتشيت ، ولكنى مع الأسف كنت حدثاً صغيراً ، وكنت فتاة فى فجر أنوثتها وكان ما غمرنى أحلاما ، مجرد أحلام !

ومر الزمن بعد ذلك موفضاً، وتتالت منك حوادث وتصرفات كانت على تفاهتها وصغرها أبلغ تعبير عن مودتك وأعظم مشجع لى على الطمع والأمل فيك كشريكة مثلى لحياتى المقفرة المصحرة !

وقفزتُ درج الدراسة وثباً ، ونلت بعض ما أصبو إليه . . . نلت شهادتى المدرسية ، كما نلت وظيفتى المتوسطة ! ومر شهر كنت أهيئ فيه نفسى للحظوة بلك والتقدم لخطبتك الحبيبة التى هى كل مطمحى فى الحياة ، والتى برغم ضآلة مواردى كنت ادخرت لها ما يكفى وما يزيد !

نعم مر شهر واحد على توظيفى ، ولم يكن بالكثير ، كنت أمنى النفس أن تكون فى أعقابه الخطبة المرتجاة !

ولكن وا أسفاه ! . . .

وا أسفاه يا عفاف فقد مزق قلبى النبأ المصمى الذى فاجأنى به القدر . . القدر الذى لا يرحم !

لقد خطبت يا عفاف . خطبت لرجل فى سن أبيك واستجبت مرغمة ! وكنت مع ذلك تحبيننى ، وكنت آثماً لأننى

لم أصارحك بحبى برغم تشجيعك لى دائماً وضغطك الحبيب كفى عند كل مصافحة !

ولكن أكانت مصارحتى مقدمة أو مؤخرة فى الأمر ؟ كلا ، إنها لم تكن بذات جدوى فالحظ لمن سبق فى عرف بيئتنا هذه الجائرة وتقاليدنا الظالمة ! أما الاعتراف بالحب فهو الجريمة ، الجريمة الكبرى يا عفاف ! ومن ثم لم أستطع أن أقف تيار الخطبة .

لست أخبرك بالهول الذى لقيته لهذا النبأ الصاعق المفجع ، ولكنه كان هولا محيقاً ليس أقله أننى قضيت أسبوعين طريح الفراش من الحمى . . . ثم عشت بعد ذلك ميتاً بين الأحياء !

وتصرمت السنون وضمتك دار زوجك ، ضمتك مراراً ولفظتك مراراً ! ولكن والدك — جازاه الله — كان يعيدك دائماً إلى حظيرة الزوج ، وليته تركك مرة لأحظى بك زوجة وأعيش مدى العمر سعيداً .

واطمأننت أخيراً فى دارك ! وأنجبت من ذلك العجوز القدم — ولا تؤاخذينى حين أشتمه — أنجبت بنين وبنات هم كاللؤلؤ المنثور استمدوا بهاءهم من بهائك ورواءهم من روائك !

ولكنك ذبلت أخيراً يا عفاف ذبلت وتحطمت . . حطمك القهر والغلبة فما كنت تودين لشبابك النضير أن يلفه ظلام

شيخوخة زوجك ! وأن يبرد حرارة جسمك اللدن لمسه البليد !

وحطمتك الأمومة وهى قاهرة غلابة ! !

ولكن مع هذا بقى روحك المطمور شفافاً نقياً أراه ببصيرتى، وأتروّاه بقلبى !

أما أنا الذى لم أتزوج ، والذى كنت سكبت فىّ من حبك أى عزيمة وأى صبر ، فقد حطمنى حبى لك وهدنى هواك ، وإن لم أعبر عنه يوماً كما أشاء ، ولكن يكفينى أنك الآن قد عرفت السر فى أننى لم أتزوج ! كما عرفت السر الذى لمسته فى يدى المثلوجة حينما صافحتك مرة فى دارنا ، وقد مسخ من شبابك بهيجه وثائره وإن بقى له سحره وتأثيره الذى سرى يومها فى كيانى !

والآن فلتسخرى يا عفاف ما شئت أن تسخرى فقد سخرت منى قبلك الأيام، كما سخرت أنا نفسى من حمقى ومن شبابى ! !

سخرت من أملى الضائع ومن حياتى التى عشتها بلا طعام والتى اعتصرتها بلا نكهة أو رائحة ! !

اسخرى ياعفاف فما نحن إلا سخرية فى الوجود الهازئ الساخر ولكن إياك أن تنسى قط أننى كنت يوماً اللحن الخالد الوحيد الذى عرفه قلب إنسان هائم أحبك فى صمت وخشوع ، وما زال يحبك بلا أمل !

هشام

تقاليد

انسل « شفيق » إلى غرفته ، وفى نفسه ثورة تضطرم ، وعلى ثغره كلمات حبيسة مثلومة لم تستطع التفلت من بين شفتيه الراعشتين ، فهذه أول مرة يحس فيها أنه متهم مطارد من أعز الناس عليه : والده الرفيق العطوف الشيخ « عدنان » . وراح يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، ثم ارتمى على سريره مغيظاً محنقاً وأخذ يردد : « إننى لعاجز . . . إننى لذليل . . . ألا سحقاً لى إن لم أبدد سجف هذه الحياة البغيضة التى أحياها وأخترق حلكتها الثقيلة . . ما معنى الشباب إن لم يكن تمرداً وقوة ؟ . . . تمرداً على كل بال عتيق من هذه التقاليد السمجة الطاغية ، وقوة ترسم الطريق القويم وتسلكه فى غير هيبة أو وجل . . نعم سأنطلق جريئاً إلى غايتى وليغضب من شاء إذا شاء ! »

وكانت هذه الجملة حينئذ آخر ما لفظته شفتاه . . .

كان شفيق قد حصل حديثاً على شهادته الجامعية العالية ، وكانت رؤى المستقبل البسام تتلألأ لعينيه فى موكب سحرى بهيج ، وتملأ شعاب نفسه بالأمنيات والأحلام . فهو من أسرة عريقة ذات ثراء وجاه ، ووالده من كبار الموظفين ، ومن ذوى

الحيثية والكلمة المسموعة فى الهيئة الاجتماعية ، وقد أبى إلا أن يخلفه ابنه فى مركزه الاجتماعى العتيد ، وفى زعامة العائلة ، فتوفر على تنشئته نشأة ممتازة ؛ وها هوذا شفيق قد طوى مراحل التعليم العالى وعاد إلى والده من مصر بنفس وثابة مطمئنة ، وإن تغيرت فيه بعض العادات والميول ، فالعائلة محافظة أرستقراطية تتناول شؤون الحياة بميزان خاص ، وترى فى تسامح شفيق بمجالسته أناساً تتغاير طبقتهم مع طبقة عائلته شيئاً يضغط على كيانها ، وهذا ما تحدث فيه الأب إلى ابنه وأنكره فى غلظة عليه . فراح الابن يدافع عن موقفه فى براعة المحامى الأريب وجرأته ، ثم استأذن وانسل إلى غرفته . . .

وكان جرمه مزدوجاً ! فليست مخالطته الطبقة الأقل مرتبة من طبقته هو وحده ما يؤاخذه والده عليه الآن ، ويشن بسببه هذه الحرب الحامية الوطيس . ولكنه تعريض مستور بعلاقته الخفية بابنة جارهم الخياط « سكينة » . أما كيف نمى إلى أبيه خبر هذه العلاقة ، وكيف تعرف على طبيعتها ، فأمر تسأل عنه زوجة أبيه ، وإن لم يباله كل المبالاة ، فقد ركز دفاعه الحار لدى والده فى نقاط معينة جهد فى أن يجعلها عامة ، وتظاهر — فى كياسة — بأنه لم يستشعر تعريض أبيه بعلاقته الغرامية مع ابنة الخياط ووقوفه عليها !

ولكنه ارتد إلى نفسه حزيناً يائساً كظيماً . . .

وحين هبط الليل ، ومن النوافذ الجانبية المتقاربة بين المنزلين ، والتي لا يفصلها غير أقل من نصف المتر التقى شفيق بسكينة ذلك اللقاء الخاطف المعتاد ، وقد حفهما ضوء القمر الوديع بروعته ، وأضفى على مجلسهما جمالا أخاذاً متألقاً ، ولفهما الهوى العذرى بغلالته الشفافة السابغة !

وهمس شفيق برغم سحابة أسى ما برحت تظلل محياه :

— هاتى ما لديك . . .

ولكنها راحت تفكر فى سهوم وشرود ولم تجبه ، وتطلع شفيق إلى وجه فتاته فما راعه إلا شحوب يغشى ذلك المحيا البسيم الوضاء ، وإلا دموع مشبوبة تساقط — فى انهمار — من مقلتيها النجلاوين .

هتف ملتاعاً :

— يا لله ! ما هذا يا سكينة ؟ أتبكين ؟ ؟ أتبكين يا سكينة وأنت بجانبى ؟

وردت عليه بعد هنيهة فى كلمات معولة مجروحة :

— أجل يا شفيق إننى أبكى حظى العاثر . إننى فتاة مسكينة محرومة ؛ لقد أحببتك من كل قلبى ، ولكننى أعترف لك الآن بأننى مذنبة ، فهلا تصفح عنى ؟

— مذنبة ؟ ! ما هذا الذى تقولين ؟ ماذا تعنين بالله ؟

— نعم ! كيف لا أكون مذنبة يا شفيق بحبى إياك ؟ كيف لا أكون مذنبة وأنا أعلم أن والدك يضطهدك بسببى الآن ! ! !

— آه . . والدى يضطهدنى بسببك ؟ هذا محال يا عزيزتى ، هذا غير صحيح . وإذا صح هذا فأنا الجارم الذى ينشد المغفرة . أنا الجارم لا أنت يا سكينة . وتهدج صوته وهو يقول :

— ولكن هلا أخبرتنى بكل ما تسرينه يا أعز مخلوق علىّ ؟

— ماذا أسر يا شفيق ؟ لقد أرسل والدك إلى أبى خطاباً مرّ اللهجة وعيت منه — سراً — قوله : « . . . قد أسمح لابنى مضطرا أن يجالس أمثالك ، ولكننى لن أسمح له بحال أن يفرط بكرامة عائلته وأنت توعز إلى ابنتاك أن تتزيا له بزى المحبة الوالهة بغية الاقتران به . . . فكر يا صاحبى فالمغبة غير حميدة » ؛ ولك أن تتصور ما نال والدى من حزن جائح وقد أتى إلى الدار محموماً مصعوقاً من هول الصدمة وقسوتها ، وما نالنى من عذاب الضمير وإرهاقه ! . . . ألا ليتنى لم أولد يا شفيق ! يا لى من تعسة جانية وأنتما ضحيتاى ! . . .

ذهل شفيق لهذه المفاجأة وانتابه حنق جارف على والده وراح قلبه العاشق المفجوع يتنزى بين أضالعه فى جبروت وعنف إشفاقاً على حبه الطاهر أن تذهب به أباديد رياح هذا الموقف

وأعاصيره ، ولم يلهمه عقله ماذا يقول حتى ألهمته هذا محبوبته .

– شفيق من الأفضل لنا أن نفترق وأن نتناسى حبنا

– رحماك يا سكينة ما هذا الذى تقولين ؟

– بل رحمة بى يا شفيق !

وأجهشت ببكاء صاخب تفتتت له نفس شفيق ، وتمزق له شغاف قلبه فهتف بها مترفقاً .

– ألا كفى نواحك يا حبيبتى ، فلن تعدمى فىّ نصيرك وظهيرك ، لسوف أحطم هذه الأغلال ، ولسوف أسخر مر السخرية من هذه الأنانية المقيتة التى يتذرع بها من يريدون خنق هوانا ووأد حبنا ، سأتزوج منك يا سكينة ، وسآسو جراح أبيك وأضمدها ، فلا تأسى يا حبيبتى ، أنت لى وأنا لك ولن يستطيع أحد أن ينسج ستاراً يفصل ما بيننا ! . . .

وراح يجفف دموعها بمنديله ويربت على كتفيها ، ثم تصافحا فى حنان وافترقا ! . . .

* * *

لم ينم شفيق ليلته تلك ، وعندما أرسل الفجر أولى خيوطه الجوهرية الشعاعة تراقص الأفق العريض ، كان شفيق فى مصلى أبيه وقد سبقه هذا إليه بلحظات .

– أبى . . . أبى . . .

– نعم يا شفيق . . .

– جئت أستجدى أبوتك وأستدر رأفتك !

– فيم الاستجداء وأنت تعرف أننى ما ذدت عنك نشدة ، ولم أرد لك قط طلباً ؟

– أجل يا أبى ! ولكننى أريد أمراً آخر غير الذى تتوهم . إننى . . . إننى أريدها يا أبى !

– تريدها ؟ ومن هى ؟ ابنة الخياط ؟ ؟

– ما عدوت مرادى يا أبى . . . إنها هى ، إنها فتاة فتانة شريفة ، على قسط موفور من العلم والذكاء والجمال ، وإنها لجديرة بالحب ، فبالله إلا ما حققت رجاءينا بالزواج ، إنها الحلم المجسم أتغذى بمرآه ، إنها الأمل الذى يلون لى مباهج الحياة ، ويلبسها أردية موشاة مذهبة !

– ألا تبا لك ! ما أتفه رجاءك وما أحقر مأملك ! لقد قلت لك عشرات المرات إنك ستجنى على نفسك وعلى اسم عائلتك بانحدارك إلى درك مخالطة أوشاب الناس وأراذلهم ! وها أنت الآن تتوقح أمامى وتجرؤ على لتلفظ بكلام سخيف لست أدرى ماذا أسميه ؟ أنسيت أنك تنتمى إلى عائلة من أشرف العائلات . وأنك شفيق الذى لم يأل والدك جهداً فى سبيل تثقيفك ببذل النفس والنفيس ، حتى أصبحت شيئاً مذكوراً ، وأن أرقى العائلات تتطلع فى لهف وشوق إلى أن نصهر إليها ؟ أنسيت أن

الدكتور « عادل » طالما لمح لى ، بل صرح ، فى رغبته المتشوفة أن يزوجك ابنته الفضلى « نادية » التى لا أحسب أن فتاة من معارفنا تضاهيها ثقافة وأناقة وجمالا ، وقد تعلمت مثلك فى مصر . . . ما هذه الداهية الدهياء يا بنى ؟ ! ثب إلى رشدك ، واطرح عنك هذه السفاسف !

ولكن شفيقاً انحط على أبيه وراح يوسعه لثماً واستعطافاً ، وخنقته عبراته فانتحى جانباً وأخذ ينتحب !

ولم يكفكف هذا من غلواء الوالد ، أو يرقق من حاشيته ، فانتهر شفيقاً بشدة ، وحينئذ عظم الأمر على شفيق فتمتم !

— أفتأذن لى أن أرحل ؟

— ترحل لأنك تذوب هياماً بابنة الخياط ؟ تلك هى الهمة العالية والتضحية المثالية التى احتقبتها لهذه المواقف ، وتلك هى ثمرات علمك وأدبك تؤتى أكلها الجنىّ الناضج . . . كفى أيها الجاحد المتمرد نكراناً للجميل وتعالياً على الأبوة . . . ارحل . . ارحل إلى حيث لا أراك ولا أعرف أين مقرك !

— ما دام أن هذا لن يضيرك . . . وما دام أننى من الهوان عليك بحيث لا أستحق تحقيق رجاء أرى فيه الخير لى ، فلن أرحل يا سيدى ! لن أرحل ولكننى سأغادر هذه الدار إلى غير عودة . فوداعاً !

واندفع إلى غرفته فحزم حقيبته وحملها إلى خارج الدار وهو يتميز من الغيظ ويتقلب على جمر الجوى !

وفى صباح اليوم التالى تلقى والد شفيق الرسالة التالية تتوضح عليها شارة أحد الفنادق المحلية وتحمل توقيع شفيق :

« . . . عندما تصل إليك هذه الرسالة ربما أكون أنا فى عداد من يئسوا من الحياة فاختاروا مفارقتها لا عن رضا بل عن كراهية وألم ، فما أقدم عليه الآن لا أرضاه لعدو لدود ، ولكنك ألجأتنى إليه بتصرفك ! لقد أردتنى امرأة وقد أرادنى الله رجلا مثقفاً مستنيراً يعرف واجبه . . . » .

ولم يستطع الشيخ عدنان الرجل الصلب أن يتم هذه الرسالة بعد أن لمح ما ترمز إليه ، بل وثب إلى الطريق قافزاً فى سيارته ، أمَّا الفندق الذى تلقى منه رسالة شفيق .. مقتحماً غرفة ابنه فى عجلة وارتباك لم يخفف من وقعهما إلا أن وجد ابنه حيا متمدداً على سريره وفى يده كتاب يقرؤه .

* * *

كل شىء كان يتوقعه شفيق من وراء مناورته إلا أن يرى ذلك الطود الراسخ والده الشيخ عدنان وهو يتهاوى فى أحضانه باكياً بحرقة والتياع وهو يقول : إنها دموع الفرح بنجاتك

يا شفيق ! كلا لن يحرمني الله منك أبداً ، ولن يقدر عليّ ثكلا قاتلا وفضيحة كاربة ، وأنا في هذه السن ! لقد رضيت بزواجك بمن تريد ، فتعال يا شفيق تعال . . لنقدم واجبات الإكبار إلى صهرك المحترم الشيخ إبراهيم ، وليحكم الله بما يريد ! . . .

حية تسعى

ظل « عبد السميع جمعة » و «عبده الحمدانى» سبع سنوات متواليات أسعد جارين وأقرب صاحبين !

وظلت زوجتاهما متصادقتين أسوة برجليهما اللذين ألف ما بينهما الجوار ووثقته الصحبة ، وإن اختلفت وجهة كل فى طلب الرزق ، فقد كان عبد السميع نجاراً ماهراً ناجحاً ، على حين كان صاحبه عبده يمتهن بيع العطور المختلفة ، ويربح من تجارته فيها أرباحاً مغرية تدر عليه كسباً حلالا !

كان كلاهما شاقاً طريقه فى الحياة بجد ودأب ميسراً لما خلق له من عمل يقوم بأوده ويؤمن عيشه .

كما أن أولادهما كانا أيضاً أقرب إلى الإخوة مع بعضهم منهم إلى الجيران ! وكانا يقطنان داراً يشغل أعلاها عبده ويشغل دورها السفلى عبد السميع !

وكانا سعيدين كل السعادة يشاركان بعضهما أفراح العيش وآلامه ، ويحلان مشاكلهما ، حيث يعتمد كل منهما على صاحبه ويثق فى سداد رأيه وصواب توجيهه !

وفجأة . . . وبعد كل هذه السنين الطوال دبت ما بين الاثنين عوامل الكدر وأسباب النفرة والخصام ، كان سببها ما سعت به واشيات الحى بين الزوجتين من أن كل واحدة منهما تغتاب الأخرى بما يسوء، وتقع فى عرضها ، وقد استطاعت أولئك الواشيات أن يفرقن ما بين الاثنتين ، وأمكنهن بما تلقفنه من حديث تثرثر به النساء دائماً أن يحكمن وسائل الفرقة بما لا يرجى معه صلاح تعود بعده المياه إلى منابعها ، ويخزى له الشيطان ويشجى أعوانه ! وما إن تعكر الصفاء بين المرأتين حتى أعقبه تكدير للعلائق الوثيقة والروابط الوشيجة التى كانت تربط ما بين الرجلين ، فأصبحا يوماً وإذا هما متدابران . . . وتباعد تبعاً لهما أبناؤهما ، فلا يلعب طفل مع طفل ، أو طفلة مع جارتها !

ولم يكن ثمة من جار ثالث أو صديق يستطيع أن يكون حمامة سلام أو رسول صلح تعود معه الأسرتان جميعاً إلى استئناف الصلة القديمة التى خسرتاها معاً لتوافه الأسباب وصغائر الموجبات !

ومرت الأيام والشهور . . . ولا جديد يقرّب مسافة الخلف أو يطفىء نار الغضب المحتدمة وثورة الحنق المؤججة بين الجارين اللذين كانا يوماً أهنأ رفيقين متجاورين !

وبمرور الأيام وتعاقبها تناسى كل منهما ما دعاه إلى خصومة

صاحبه ، وود لو بادله السلام الذى انقطع أو التحية التى جفت على الشفاه ! نعم ود كل منهما لو تجددت صلة الصحبة العريقة التى كانت فى وقت من الأوقات أهنأ صحبة وأوثق ألفة ترغم الحسود وتقهر الشانئ ، كما كان ذلك شعور زوجتيهما اللتين كانتا سبب التجافى ، وحتى الأبناء الصغار ، فقد كانت كل أسرة ترغب أن تستعين بالأخرى !

ولكن كان دون ذلك أن يتنازل أحد الرجلين عن كبريائه ويتطامن من عليائه فيبدأ زميله السلام والكلام ، ومن ثم فلا بد أن تجرى بعد ذلك عبارات المجاملة ، ويتبادلا الحديث الذى يعنى نسيان الماضى وبعث عهد جديد !

ولكن من منهما يريد أن يبدأ الآخر ؟ . . . لقد كان كل منهما يتصور أن جاره قد لا يجيبه بما يشجع ، أو قد لا يتحمس حماسته لاستئناف الصداقة والعلاقة على أسس مودة وصفاء . . . بل توهم كل منهما أن زميله ربما رده أو أهمله ، ومن ثم فماذا يكون موقفه إذن وكيف يدارى خجله ويجتاز حرج الوضع السيىء الذى ورط نفسه فيه ؟ !

إن كليهما كان عصبى المزاج حاد الطباع تكاد تعصف به ريح الغرور ، فكيف والأمر كذلك يتقبل من صاحبه إهانة شر منها وقع السهام واصطلاء الجمر ؟

وكان يقابل الدور السفلى قبو مظلم هو من نصيب عبده ساكن الدور العلوى . . . كان يتخذه مستودعاً لجانب من أمتعته ومخزناً يحفظ فيه غرائر الحنطة والدقيق والأرز وصفائح السمن والتمر وما ماثل ذلك مما يدخر بالجملة ويختزن لغذاء العائلة .

وفى عصر أحد الأيام هبط عبده كعادته كى يأخذ بعض الدقيق والسمن لأهله . وما إن بدأ يحتفن لنفسه من الدقيق شيئاً حتى تسمرت قدماه فجأة وارتعشت ركبتاه وأحس أنه يوشك أن يسقط على الأرض مغشياً عليه !

فقد رأى — ويا لهول ما رأى — رأى فى ركن القبو العريض المظلم حية كبيرة رقطاء تلتمع عيناها الزئبقيتان الخبيثتان وهى تتخذ هيئة الوثوب والانقضاض ! . . . وعقد الذعر لسان عبده وود لو أن الأرض قد ابتلعته فلا يشهد هذا المنظر الراعب المفزع . . . إنه ينظر الموت بعينيه . . الموت الزؤام الذى ليس منه مهرب ولا عنه محيص ! . . . وإن هى إلا هنيهة تهاجمه فيها الحية تعضه عضة تحقنه فيها بسمها الناقع فإذا به من سكان القبور !

حية ؟ . . . لقد عاش طول عمره يفرق من ذكر الحيات غلاماً ورجلا ! ولعنها لحظة زينت له فيها زوجه اللئيمة الأنانية أن يهبط فيها إلى القبو ليوافيها بالدقيق والسمن ! وشتم فى سره

صاحب الدار الخبيث الذى سولت له نفسه وشاء له رأيه أن يبنى فى الدار قبواً كهذا يغرى رجلا مثله أن يتخذه مخزناً ويضطره أن يروده !

وهل عاد مخزناً الآن !؟ . . . كلا لقد آض مقبرة كئيبة له ! . . . إن هى إلا عضة أو حتى نفثة على بعد تنفثها عليه الحية من سمها القاتل الكريه فإذا هو من الهالكين !

وتراءى لعبده أسوأ مصير يمكن أن يتخيله إنسان . هكذا وفى مثل لمح الطرف سيفارق الدنيا ويعود شخصاً منعيا مأسوفاً عليه ؟

يا لله ! أهكذا يتيتم أولاده المساكين ويتشردون لهذا السبب التافه البسيط ! وسيقول عنهم الناس بعده انظروا فهؤلاء الأطفال هم الذين قتلت أباهم الحية . . . كما تترمل زوجه وتعيش بعده ثكلى !

نعم إنه يعرف تماماً أن الموت حق لا ريب فيه وأنه سيدركه ولو كان فى برج مشيد ، ولكنه لا يريد أن يموت هكذا هذه الميتة الشنيعة البشعة التى ليس لها حتى وقار الموت وجلاله ، سيقول الناس إنه مات لديغا ومعنى ذلك أن قاتله حشرة من الحشرات ودودة حقيرة من دود الأرض، سيموت إذن كما يموت الجرذ التافه !

انثالت هذه الخواطر وأمثالها على رأس عبده المكدود المرهق، وأحس ارتعاشاً فى رأسه فوقر فى نفسه أن شعره يبيض من عظم الفاجعة المرتقبة !

وتصبب العرق غزيراً من جسمه وجبهته ورنا إلى باب القبو المواراب رنوة الفروق العاجز عن اقتحام البحر إلى شاطئ الأمان . إن الباب منه غير بعيد ولكن أين منه العصب المواتى الذى يستطيع معه أن يشد نفسه إلى الباب فيهرب ؟ !

ورويداً . . . رويداً تراءى له أقرب سبيل إلى الخلاص فما له غيره من سبيل ! . . . وأحس أنه قد يحمل النفس شططاً باختيار هذا السبيل ، ولكن ليس على الغريق أن يفكر فى غير قارب السلامة ولو كان نوتيه أقسى الأعداء !

لقد قرر أن يستنجد بجاره القريب منه عبد السميع ، ولكن أتستطيع أوتاره الصوتية أن تسعفه بالنداء؟ إنها إن أسعفته كان الأمل فى نجاته محققاً وإلا سُجل اسمه فى وفيات هذا اليوم المشؤوم !

وصرخ عبده بملء صوته الذى بدا له متحشرجاً ، ومع هذا فقد كان صوتاً صادراً من أعماقه يحمل نبرة الفزع والهلع : يا عبد السميع أدركنى يا عبد السميع ! وفى ثوان معدودات كان عبد السميع على باب القبو وهو فى ملابسه الداخلية يجيبه :

ماذا بك يا عبده ؟ أنالك سوء أو مكروه ؟ وأجابه : أسرع يا أخى أحضر أى شىء تقتل به هذه الحية اللعينة التى أمامى ، إنها تتحرك نحوى الآن . . . أسرع بالله عليك أسرع ! ووقر فى نفس عبد السميع أن جاره لا بد قد وقع فريسة للحية التى ينبئ عنها ، وسرعان ما أنجده فى لمح البرق إذ عاد وفى يده اليمنى عصاً غليظة وفى الأخرى مصباح ذو بطارية !

وسلط المصباح أول ما سلطه على وجه عبده ، وكم راعه حينئذ الفزع المستولى عليه والشحوب الذى داهمه ، وهتف عبده به : لا يا عبد السميع ، إنها قبالتى ، إنها فى الاتجاه الذى أمامى !

وأدار عبد السميع المصباح فى يده يمنة ويسرة وفى الخلف والأمام ، ودار به فى القبو دورات عديدة دون أن يرى شيئاً . . . لا بل رأى تجاه المكان الذى يقف فيه جاره والذى كان دائم الإشارة إليه رأى . . . رأى قطعة من الصفيح ناتئة نتوءاً بارزاً عن أرض القبو ، وكان طرفها ملتمعاً مومضاً . لقد كانت هى بلا ريب شبح الحية المخيف الذى فزع له عبده كل هذا الفزع وارتاع له كل ذلك الروع !

وحين ألقى لصاحبه بحقيقة ما رأى لم يشأ الآخر أن يعترف مداراة لخجله ورجولته المنهزمة ، بل عاد يمارى ويبدى استعداده

للمراهنة ، ولكن البحث والاستقراء أرجعاه بالرغم عنه إلى الواقع الذليل !

ومن ثم صمت خاسئاً محسوراً !

ولكن هذا الحادث الصغير كان السبب الذى طالما سعى إليه كل من الرجلين بقلبه ووجدانه ، كان عامل ارتجاع الألفة من جديد ، فعادت حبال المودة بين الأسرتين قوية بعد تصرمها، مكينة بعد تفككها وانحلالها . وقد كان لهما من ذلك موعظة بالغة ، فقد شعرا أن هذه الحبال الوثيقة قد تنقطع لأمر ليس بذى بال ، كما حدث آنفاً ، كما أنها ربما عادت لسبب هو من البساطة بمكان . .

أجل فإن عبد السميع جمعة وعبده الحمدانى قد تلقنا من جذاذة الصفيح الباردة العتيقة أوقع درس وأبلغ عظة جعلتهما الآن بحق أسعد صديقين متجاورين ! !

دادى بشير

الخميس ١٥ صفر . . .

يالله! يأبى « سعيد » إلا أن يقف فى طريقى دائماً ! وأن ينافسنى فى كل شىء ! نافسنى فى الشركة ففاز من أسهمها بنصيب الأسد ، ونافسنى فى الوظيفة فنال العمل الذى كنت أظن أنه مقدر لى . . . ومن قبل زاحمنى فى الدراسة فسبقنى وأخذ الشهادة قبلى !

أراجع هذا إلى ذكائه النير وخلقه المستقيم ؟ أم راجع لبلادتى وغبائى ؟ كلا إنه ليس راجعاً إلى شىء من هذا أو ذاك ولكنه الحظ ولا شىء غير الحظ !

إنه أخى الأكبر ، ولكن ما هكذا يعمل الأخ الشقيق مع أخيه الشقيق !

كل شىء أطيق أن ينافسنى فيه سعيد إلا فى « آمال » ابنة عمى ! إنها الزوجة المرتجاة التى وقع اختيارى عليها وهى بعد طفلة .. وهى الصبية التى تفتحت آمالى على ترانيم صوتها العذب ، والتى كدحت وكافحت كى أكون موضع رضاها ومحل إعجابها ، وهأنذا — وأنا على وشك أن أفوز بها شريكة لحياتى — إذا بالقدر

يتدخل ويضع فى طريقى إنساناً ما كنت أظن يوماً أن سيكون غريمى الخطر ومنافسى اللدود ، فى مَن ؟ . . . فى المرأة الوحيدة التى أحببتها والتى قدمت شبابى قرباناً لها ، وأنهكت جسمى المكدود كى ألفت نظرها إلىّ . ولكن ها هوذا منافسى المحترف الكبير أخى سعيد يتصدى لخطبتها !

ولكن ألا يكون ما بلغنى من « دادى بشير » مجرد إشاعة تسقَّطها ليس لها أثر من الصحة؟ . . . إذ لا يعقل بحال أن يقدم أخى سعيد على هذه الخطوة الحاسمة فى حياته دون أن يستشير أخاه بل دون أن أسمع من والدتى شيئاً من ذلك . لا شك أنها مجرد إشاعة ! . .

أحس الآن أننى أستطيع أن أنام حتى الصباح ، ولا شك أن غداً سيكشف لى ولو قليلا عما وراء الستار . . . !

السبت ١٧ صفر . . .

أكد لى دادى بشير أن الأمر جد لا هزل ، وأنه رأى أخى سعيداً وعمى « إبراهيم » يقرآن الفاتحة . . . فاتحة الخطوبة ، كما رأى سعيداً وهو يقبل يدعمى شاكراً له أن أولاه هذا الشرف.. بل إنه سمع عمى وهو يقول لسعيد : وهل كنت تنتظر منى يا سعيد أن أختار لآمال ابنتى غير ابن عمها ؟ !

ويلتاه ! أهكذا تتهدم آمالى الفتية بين عشية وضحاها ،

وتذهب أحلامى الذهبية التى نسجتها من خفقات قلبى ووجيب حبى أباديد تذروها الرياح وسراباً ليس وراءه غير الظمأ القاتل ! آه ماذا أحس برأسى ؟ !

إنه الصداع الثقيل الذى استولى علىّ طيلة هذا الأسبوع ، والذى أشعر كأن له ضرب المطارق فى هذا الدماغ الحائر المكدود !

كم أنت مسكين يا منصور ! يجنى عليك أقرب الناس إليك : أخوك الكبير ، ومن هو منك فى مقام الوالد ! . . . وأية جناية أفظع من أنه يستلب فتاتك التى هى منك بمنزلة الروح من الجسد ، فيأخذها قسراً لما له من وجاهة شخصية وثراء ربما كان مصدره الوحيد ما ورثه من أبيك فاستبد به ؟ . . .

ولكن لا أستطيع أن أردّ الإهانة لهذا الإنسان الذى ألحق بى كل هذا الخسار ؟ ! أتضيع منى هكذا فرصة الزواج من آمال ؟ وتضمها دار هذا الوغد المجترىء سعيد ؟ ألا إنها للذلة والعار ! . . . الماء منى قريب يترشفه غيرى ، والزاد زادى تمتد إليه غير يدى !

الاثنين ١٩ صفر . . .

فزعت اليوم إلى أمى أبثها شكواى وأفضى إليها بما أكنّ . . . لم أقل لها إننى أكاد أذوب غراماً بآمال ابنة عمى . . . فما تعودت

أن أجرؤ عليها هكذا ، ولكننى شكوت لها أخى . . . قلت لها لقد علمت أن سعيداً قد اعتزم أن يتزوج ، ومع هذا فإنه لم يخبرنى عن ذلك بشىء . . وأن هذا قد حزّ فى نفسى وأثار ألمى ، فهو إن لم يستشرنى فى زواجه فمن له بمشير خير من أخيه، كما قلت لها : وأنت يا أماه ألم يستشرك ؟

ولقد نجحت فى أن أثير اهتمام أمى ، وأن أستفز سخطها وحنقها على سعيد . إننى أشعر أنها توده أكثر منى ، ولكن هذه الوشاية ستقصيه عن قلبها كثيراً . . .

لقد أنبأتنى أنها تشاركنى الخجل بإقدامه على الزواج ، ولكنها وعدتنى أن تستوضح منه سر إخفائه هذا النبأ عنا !

أيها الخبيث سعيد ! لن ينفعك تسترك ، وسوف يكشف لى الغد القريب عن نفسك اللئيمة وقلبك المريض الذى لا يقدر أخاً ولا يرعى واجب أم ! . . .

الأربعاء ٢١ صفر . . .

آه من ألاعيب هذا الثعلب سعيد ! ! لقد أخبرتنى أمى أنها لم تستطع أن تحصل منه على رد يتبين منه السلب أو الإيجاب، لقد قال لها إنه متى اعتزم ذلك فسوف يخبرها ويخبرنى . يا له من مغفل ! أيحسب أنه بذلك يستطيع أن يكتم عنى ما عرفت وما كشف لى السر عنه دادى بشير ؟ !

ولكن لماذا لم يخبر أمى بذلك ؟ أتراه يخشى أن أعرف فأفسد عليه الخطة وأقلبها رأساً على عقب ؟

أتراه يخافنى ؟ ولم لا ؟

ألم أثن مرة على جمال آمال أمامه، وأطرى محاسنها ؟ ألم أقل له قبل سنوات إنها ستكون زوجة مثالية لمن تسعده ظروفه بأن ينال يدها ؟

وحينئذ التمعت عيناه التماعاً شرهاً غريباً ! أتراه التماع عين الذئب وقد تفرّس مزايا الفريسة التى سيقتنصها فى يوم من الأيام والتى سيفجع فيها أقرب الناس إليه : أخاه منصوراً ؟ !

لقد فعلها سعيد فلم يتذكر أن هنا قلباً يخفق بحبها وإنساناً كل أحلامه تدور فى فلكها !

الجمعة ٢٣ صفر . . .

ليس كالأيام كاشفاً للأستار ومظهراً للخبايا . . لقد رفع الغطاء قليلا عن الصندوق الذى يحتوى خبث سعيد وخسته . رفع الغطاء رويداً رويداً والبقية تأتى !

إننى أرى الدار تلبس حلة جديدة ، لقد بدأ العمال يزخرفونها ويبرقشونها . إنهم يهيئونها للغد الجديد الذى سيطلع فيه فجر زواج آمال بالنذل سعيد !

رباه ! أيحدث هذا حقاً ، وأصدم فى عواطفى كل هذه

الصدمة العنيفة دون جناية ارتكبتها أو ذنب اجترمته ؟ أنضبت الدنيا من بنات آدم وحواء لا يجد فيها سعيد غير كوكب آمالى آمال ، فيقتنصها بكل هذه الخفة وهذا الوثوب ؟ !

لطالما زينت لى نفسى أن أذهب إلى عمى إبراهيم فأستنبئه الخبر اليقين ، وأنحى عليه بما أشاء من اللوم . . ولكن حنقى عليه يكفنى ، وإحساسى بالنكبة والمذلة يجسم لى شعورى بالنقص !

أترانى من التفاهة إلى هذا الحد الذى يجدوننى فيه إنساناً لا يعنى به الناس ولا يأبهون لآرائه ، ويرونه على قربه بعيداً وعلى مودته وحبه لهم خصماً لدوداً ؟

كلا ، لست هذا ولا ذاك . . . ولكنها مؤامرة دنيئة حبك أطرافها الأخ الجحود والعم الكنود، كى يحطموا الإنسان الذى لم يسىء إليهم قط والذى لم يلقوا منه غير شعور المودة والإكبار.

ولكن هكذا الزمن ، فمن لم يتنمر ويستأسد يعش طول عمره موطئاً للثعالب والذئاب ! .

الأحد ٢٥ صفر . . .

أكاد لا أرى أخى سعيدا ، وأعتقد أنه يتعمد عدم رؤيتى ! وما له وللنظر فى وجهى ؟ إنه ليذكره بالجريمة التى ارتكبها فى حقى ويخز ضميره—إن تبقى له ضمير—بعد فعلته التى أقدم عليها .

لقد أصبح يتعمد ألا يرانى . إنه يعرف مواعيد مجيئى إلى البيت فيحرص على أن يهرب فى تلك الأوقات . . وحتى لو تصادف وجودنا معاً فى الدار فإنه عاد يصطنع النوم والتشاغل حتى لا يدع لى فرصة الحديث معه، فربما لا يستطيع أن يكبح فيها حينئذ لسانه عن الكلام وفضح جريمته المستورة !

تالله إنه لعتلّ بغيض ! يستأهل أن أضع يدى فى حنجرته فلا أتركها إلا بعد أن يفارق هذه الدنيا ولو مت بعد ذلك شقياً ، فكيف يختلس منى كنز آمالى : الفتاة التى كنت أشعر دائماً أنها خلقت لى خلقاً ، وأفرغت فى القالب الذى أريد !

الثلاثاء ٢٧ صفر . . .

زارنى اليوم عمى فى الدار ، وبعد أن قضى فترة مع أخى سأل عنى وود لو يرانى . . . ومع أننى فى غرفتى فإننى كنت قد أخبرت دادى بشير بأن يخبره أننى قد خرجت من البيت !

ماذا يريد منى هذا الشيخ الآثم ؟ أيريد أن يبارك لى زواج أخى ؟ أم يريد أن يتشفى من منظرى الكئيب وأنا أصطنع التجلد؟. وهل أملك نفسى ، لو كشف لى الأمر هكذا وشيكاً، من أن أباديه بالكلام الذى لا يسره، والذى ينم عما أشعر به نحوه من حقد دفين وكراهية مُرّة ؟

إنه لم يلبث مع أخى إلا قليلا حتى غادرا معاً الدار . . ولم

لايغادرانها معاً ويد الواحد منهما فى يد الآخر ؟ أليسا صهرين جمعت بينهما القرابة ووشجها الرحم ؟ . . . بلى إنهما لكذلك ! أما أنا فقد تغير مكانى منهما ، وقد نأت قرابتى . وهل رعيا يوماً لى حرمة القرابة ؟!

عجبا ! إنى أكاد أجنّ من هذا الضيق النفسى الكارب ، فلأروح عن نفسى بالخروج قليلا ، ولو أن الساعة قد أشارت الآن لمنتصف الليل . . . وهل بقى لى عمر من ليل أو نهار ؟ إن الأوقات كلها قد أصبحت تتماثل فى نظرى . . . وقد تبلور شعورى بالناس فإما أن يكونوا جميعاً أقربائى أو يكونوا أعدائى إذ تساوت فى نظرى قربى القرباء ونأى البعداء !

الخميس ٢٩ صفر . . .

التقيت اليوم مصادفة وجهاً لوجه بأخى سعيد . لقد استقبلنى بضحكة صفراء ثم قال لى : يظهر أن عملك قد عاد يستغرق منك الآن جلّ وقتك! ولم ينتظر بماذا أجيبه ..بل قال لى : على أية حال لا تنس أن يوم الأربعاء القادم يستدعى وجودك فى الدار منذ الصباح !

ولما استفسرته مستغرباً : لماذا ؟ أجاب : إن عمك سيفحص معنا فيه بعض الأوراق التى تتعلق بشؤون الوقف ! ولا بد أن نأخذ رأيك فيها !

ثم مشى دون أن يقول لى شيئاً !

ما شاء الله !

منذ متى يؤخذ رأيى فى شؤون أو أعمال ، وأنا الذى لم يؤخذ رأيى فى مسألة زواج أخى ؟ . . . منذ متى يا سعيد ؟ ولكن لا تفرح ولا تغتبط فسنرى !

أترانى أهدد سعيداً ! وما هو السلاح الذى أستطيع أن أشهره فى وجهه أو ألوّح به بين عينيه ؟ اللهم لا شىء غير عجزى وضآلة تدبيرى !

لو كنت سبقته إلى خطبة آمال ، لكنت فعلا قلبت خطته وعكست تدبيره ، ولكن الأمر الأن ليس بيدى ، إنه سيدُ الموقف وما أنا إلا دخيل بهذه الدار . . . وأخ غير مرغوب فى وجوده !

السبت ١ ربيع الأول . . .

استرجعت فى ذاكرتى البارحة أمراً عجبت لنفسى كيف أغفلته فلم أضمنه هذه المذكرات . . . إن هذا الأمر يتعلق بالطرف الثانى ، يتعلق بآمال . . . إن آمال سترفض بلا شك أن تتزوج إنساناً غيرى ، سترفض رفضاً حاسماً ، وسيكون لرفضها قيمته فى هذا الظرف !

ألم تعاهدنى آمال منذ أعوام قريبة تخلت أن تكون لى

وحدى ؟ كان ذلك ضحى يوم زارتنا فيه . ووقفت معها خلسة فى شرفة مجلسنا العلوى لحظة غاب فيها عنا الأهل لبعض شأنهم. وكانت لم تحتجب عنى بعد . . . وتذاكرنا أيام الطفولة الجميلة ثم قلت لها سأظل أعزب طول العمر إن لم يقسم لى الله أن أتزوج بك يا آمال . ولن أنسى تحديقها فىّ حينئذ بعينيها النديتين الساحرتين ، ثم همسها فى أذنى ويدها ترتعش فى يدى : وأنا سأظل كذلك يا منصور . ثم أقسمتُ وأقسمتْ على الوفاء بهذا العهد !

إن آمال لمدللة عند والديها ، ولئن رفضت الزواج من سعيد فلن يقسراها على أمر لا تريده ، فهى وحيدتهما، وهى منهما فى المكان الأسمى !

تالله كيف غاب عنى هذا الخاطر ؟ كيف غاب ؟

ولكن من يبلغ آمال أن ابن عمها منصوراً يتعذب الآن من غدر أخيه ويصطلى بنار حبها اللاذعة ، وقد تصرمت شهور وأعوام ؟ إنها لن تخون العهد الذى قطعته . . ولكن أباها لن يستشيرها فى الغالب إلا فى الفترة التى لا تحتمل أخذاً ورداً ، مقتنعاً بأنها تشعر الآن أن خطيبها لن يكون إلا أحد ابنى عمها ... كما هو متعارف من قبل .

آه لو تدرى آمال !

الاثنين ٣ ربيع الأول . . .

أكد على اليوم سعيد ضرورة وجودى فى البيت يوم الأربعاء وذكر لى أن الأمر من الأهمية بحيث يقتضى احتفالى بالموعد ، وحرصى على البقاء فى الدار طيلة اليوم ! ثم تدانى منى وهمس : ولا تنس أنك ستستمع فى نهايته مفاجأة سارة !

وابتسم بعد ذلك سعيد ثم مضى لطيته !

لقد وقعت الكارثة يا منصور فلا مهرب لك منها ، أحكمَ عليك القفص لكى تشهد بعينيك جنازة حبك ومقبرة آمالك !

إن سعيداً اللئيم يأبى إلا أن يمضى فى المهزلة معى إلى آخر الشوط . يأبى إلا أن يذيقنى غصص الواقع المرير جرعة بعد جرعة ، وأن يتشفى بمنظرى وأنا أحتسى كؤوس الألم حتى الثمالة ! ولكنه نسى أننى أستطيع أن أفوت عليه هذه الفرصة ، فأغيب عن البيت كامل ذلك اليوم الذى سيجهز فيه على حبى بسكين مثلمة لا ترحم ولا ترأف !

نعم سوف لا أحضر بحال ، فليس ثمة أية قوة فى الوجود تستطيع أن تقهرنى على البقاء فى الدار !

وليغضب سعيد وعمى إبراهيم ما شاء لهما أن يغضبا ، فما أنا بعجل سمين يتآمران على ذبحه علانية ! كلا ، إننى إنسان يحس ويشعر ، إنسان له رغباته التى يجب أن تحترم ، وله

كيانه المستقل ، وله — قبل وبعد — إنسانيته التى كان عليهما ألا يهدرا حقوقها وأن يرعيا حرمتها !

ولكن . . . لا فسأحضر !

نعم سأحضر لأشهد مأساة الضمير متمثلة فى حقارة المؤامرة التى حبكاها ! . . . سأحضر لأرى قابيل كيف يوارى سوأة أخيه هابيل ! . . . سأحضر لأرى الذئب الأغبر وهو يذود عن الحمل الوديع غذاءه وريه متمثلا فى أنثاه الحبيبة فيغتصبها منه جوراً وقهراً !

سأحضر ليتسليا بمشهد هذا الحمل الصريع ما شاء لهما الضمير المظلم والكبد الغليظة !

صباح الأربعاء ٥ ربيع الأول . . .

الحركة والصخب يملآن الدار ، فهذا هو اليوم الموعود الذى له ما بعده . إننى اليوم حبيس الدار وسجين البيت ، هكذا أراد لى سعيد . أراد لى هذا لأشاركه فرحته بعقد زواجه السعيد ! لقد بعث لى منذ الصباح دادى بشير ليذكرنى الموعد ويخبرنى أنه اتصل برئيسى فى العمل فاستأذن منه . . . ولم يدر أننى قد استأذنت قبلها بيومين . إننى ذاهل الآن !

أحقًّا سيقضى على آمالى اليوم هذا القضاء المبرم الذى لا محيص عنه ؟ أصحيح أن آمال لن تكون زوجتى يوماً من الأيام،

بل ستكون زوج سعيد هذا الشقيق الخائن ؟ أهكذا وفى مثل ومض البرق وغمضة العين أشهد مصرع أمل طاول الزمان وقاوم الدهر ! ؟

ألا إن الحياة لقاسية وإننى لبائس مسكين محطم !

إن الدنيا لمن غلب ، وقد غلبنى سعيد ، بل لقد قتلنى ، جازاه الله أسوأ ما يستحقه من جزاء !

هنيئاً لك إذن يا سعيد هذا الزواج الهانئ . ! هنيئاً لك آمال الملاك ، تنعم بصحبتها ، وتهنأ بقربها ! أما أنا . . ومن أنا ؟ فتعساً لحظى وبؤساً لأمانىّ ! سأقضى العمر شهيد الألم والحرمان، صريع اللؤم والغدر !

إنك لقاتلى يا سعيد ، فابتسم لخنجرك المرهف وهو يهريق دم أقرب الناس إليك . . .دم أخيك منصور الذى كانت آخر توصيات أبيك لك وهو يجود بأنفاسه على فراش الموت : أن ارع يا سعيد منصورا ، فقد كان أبوك يحبه ! وهأنتذا قد رعيته وواسيته !

وهل أعظم من هذه الوسيلة دلالة على الرعاية والحنان ! ؟ تخطف منه خطيبته وتصمى قلبه . . . بل تدعوه أن يشهد بعينيه ساحة الإعدام ويرقب ببصره سيف الجلاد !

شكراً لك هذه الرعاية المثلى ألف شكر يا سعيد !

ولتنعم بأجمل زوجة فى الوجود ، فإنك لقوى مكين ، تعرف دائماً بسرعة سبيلك الواضح إلى الغاية التى ترومها !

أما أنا فبعداً لى ! . . . اصعد يا سعيد كما شئت إلى القمة السامقة ، ودعنى فى السفح . . . دعنى فإنى جدير بالنسيان... دعنى وحدى أشم رائحة العدم !

مساء الأربعاء ٥ ربيع الأول . . .

أأنا فى يقظة أم حلم ؟ !

يا عجباً ! أوقع ذلك لى أم أنا أسير كرى وصريع غيبوبة ؟ !

أهكذا ينقلب الشيطان فى لحظة إلى ملاك ؟ ويدور الفلك فإذا بى أطير فى سحابة الأحلام إلى الشاطىء المسحور !

بلى ، لقد حصل ذلك ! . . . وقع المستحيل ! . . . حدث ما كنت أظنه لن يحدث !

ها هو ذا أخى سعيد يحدجنى بنظرات حنون ، وأنا جالس كالأبله لا آتى حراكاً . وأنى لى أن أتحرك وقد سُمرت فى مكانى؟ ثم ها هو ذا عمى إبراهيم يحضر ! لقد حسبت لأول وهلة أن الأمر ليس كما توهمت ، حسبت أنه فعلا يتعلق بشؤون الوقف ، ولكن ما إن حضر أقاربنا سليمان وحسن وعثمان ومعهما الشيخ حسام حتى شعرت بأن مفاصلى تتخلع وتتفكك . لقد نزل القضاء إذن وحُمّ الأمر ، فسيعقد الشيخ لأخى وها هم أولاء شهود العقد !

وبدأت الدنيا تظلم فى عينى . . . ورحت أغالب الغصص التى غمرت حلقى ، وشعرت بأننى سأنفجر باكياً بعد قليل كطفل ساذج غرير !

ووقع حينئذ ما لم أتصور أنه سيحدث قط !

وقع ما كدت أصعق له دهشة وعجباً !

أخى سعيد يمسك بيدى ويجلسنى بجانب الشيخ حسام ، فأنهض وأنا لا أكاد أقوى على النهوض ولا أدرى ماذا يراد بى !

وأنظر فإذا عمى يجلس فى الجانب الآخر . . . وإذا بالشيخ يبدأ الخطبة ، ثم إذا بأذنىّ تسمعان أشجى كلام يصافح أذنين : عمى إبراهيم يصافحنى وهو يقول : « زوّجتك آمال » !

وأنا أمد له يدى المثلجة المرتعشة هاتفاً به : « قبلت » ! نعم قبلت ! وكيف لا أقبل ؟

وإذا بالأمر يتكشف لى رويداً رويداً . . . وكأنى أسبح فى غيمة رقيقة أو كأن طيفاً من الفردوس قد لفنى بغلالة سماوية شفافة !

ولم أملك نفسى إلا أن أسارع إلى أخى سعيد المظلوم فأقبل يده ! ويرنو إلى الجميع بعين محبذة ما قمت به من عمل ! ولكنهم لو علموا ما وراء الستار لعرفوا أننى لو قبلت رجليه

لما كفرت عما أجرمته فى حقه وما أثمت به نحوه من ظنون !

إذن فسعيد لم يخطب آمال لنفسه بل خطبها لى وقرأ الفاتحة باسمى ! وها هوذا قد فاجأنى أسعد مفاجأة يفاجأ بها شاب محظوظ ! أما أنا فقد نسجت لنفسى ومن خيالى كابوساً جعلته يضغط على جسمى فيذوّبه، وعلى روحى فيزهقها !

ورحت أكيل لأخى الحبيب كل شتيمة وأرميه بكل نقيصة، هذا الأخ الودود الطيب الذى آثرنى بالخير !

وراحت هذه الخواطر تنثال على رأسى وتغمرنى ، ولم يوقظنى منها إلاّ صوت عمى وهو يقول : إن شئت أخذناك إلى عروسك الليلة كما يريد أخوك ، وإن شئت تريثنا إلى الأسبوع القادم فهو أولى !

وأجبت عمى باسماً ، وأنا فى وهلة المفاجأة التى لم أفق منها بعد : بل نتريث !

كنت أريد أن أعيش أياماً فى الجو السحرى الجديد ، أريد أن أنسج لى أحلاماً جديدة ، أو بالأحرى أريد أن أجلو أحلامى ، فقد علاها الصدأ وجللها الغبار !

أريد أن أخلص إلى الواقع اللذيذ . . . بعد ذلك الخيال الثقيل الذى اجتاح حياتى وسيطر على تفكيرى !

وحينما خلا المكان إلا منى وأخى .

هتف بى سعيد : أتعرف يا منصور ألاّ أحد يدرى بمفاجأتى لك حتى ولا عمك إبراهيم ؟ ! ثم راح يقبل خدىّ وجبهتى ، أما أنا فقد رحت ثانية ألثم يديه وأعانقه ودموع الفرح تغمر وجهى !

وما إن غادرنى أخى حتى كان هناك إنسان آخر ينتظر أن يهنئنى ! لم يكن هذا الإنسان أمى !

ولكنه كان دادى بشير الذى ركع يقبل يدىّ وركبتى وهو يقول : الحمد لله يا سيدى ، ويطلب منى الصفح إذ لم يكن يدرى حقيقة شعور أخى !

ولم أكن فى حاجة إلى كل هذا الاستعطاف ، فسرعان ما أخبرته أننى صفحت عنه . . . وقلت له إننى لا أجد عليه شيئاً . . . لقد كان دادى بشير سبب مأساتى ، وإن كان ذلك منه عن شفقة بى وحسن نية وطيبة قلب ، ولكننى مع هذا عفوت عنه وتجاوزت عما سبب لى من الآلام . . . لقد كنت مستعداً لحظتها أن أصفح عن الناس جميعاً لو كان لى ديون قبلهم أو ترات ، وأن أمنح الكون كله مودتى وأشاركه غبطتى ، فكيف لا أصفح مزهواً بما أحرزت من نصر مبين عن الرجل الذى ربانى وربى أخى : دادى بشير ؟ !

بين الروح والمادة

كوميديا من فصل واحـــد

الأشخاص

نديم : شاعر كبير

أحمد : رئيس تحرير جريدة « الفجر »

حسين : تاجر معروف

فهمى : شاعر ناشىء

جمعة : جرسون

المنظر

(فى قهوة « المنتزه » المرحة التى تحفها الخضرة وتنتشر فيها الكراسى ذات الموائد هنا وهناك) .

نديم : (يقبل ثم ينحط على أحد الكراسى ويضع ما يحمله من كتب على المائدة وهو يهمهم بعد أن أجال نظرة فى أنحاء المكان)
لم يجىء أحد بعد . . . هكذا أنا أسبقهم دائما . .
ولكنهم يخسرون ولا أخسر !

جمعة : (يدنو من مائدة الأستاذ نديم ثم يمسحها) هل يريدالأستاذ
فنجاناً من القهوة أو كأساً من الجيلاتى ؟ أو . . .

نديم : (مقاطعاً)ليس الآن . . . ليس الآن انتظر قليلا . . .
ثم على فكرة ألم يحضر الأستاذ أحمد ؟

جمعة : كلا لم يحضر أحد حتى الآن يا سيدى !

نديم : شكراً . . شكراً (جمعة يبتعد)

نديم : (لنفسه) يالها من قصيدة سيسر لها أحمد بلا شك وستملؤه إعجاباً بشاعريتى وإكباراً لفنى وسيسارع إلى نشرها فى إطار فى صدر الصفحة الأولى من جريدته ! من هذا ؟ آه ! إنه فهمى ذلك الشاب الثقيل السمج (فهمى يقبل)

فهمى : السلام عليكم يا أستاذ . . .

نديم : وعليكم السلام تفضل يا فهمى ، تفضل اجلس !

فهمى : ألم تقرأ قصيدتى يا أستاذ ؟ !

نديم : قصيدتك ؟ أنت نشرت قصيدة ؟

فهمى : نعم يا أستاذ نشرت قصيدة فى جريدة « الفجر » نشرها لى الأستاذ أحمد . . .

نديم : أأحمد نشر لك قصيدة فى جريدته ! عجيب كيف جرؤ على نشر قصيدة فى الجريدة دون أن يستشيرنى كما هى عادته ؟

فهمى : ولكن القصيدة لا بأس بها يا أستاذ وقد أعجبت الأستاذ أحمد إعجاباً عظيماً ، حتى إنه لم يعد النظر فيها بل أعطاها لعامل المطبعة وهو يقول لى أهنئك يا أستاذ فهمى !

نديم : أحقاً قال لك هذا؟ مسكين أنت ! هكذا يجنون على الشباب أمثالك! يشجعونهم بالكلام الفارغ فيغترون بأنفسهم ولا يتقدمون أبداً ويظل إنتاجهم سطحياً سقيماً !

فهمى : ولكنك يا أستاذ لم تقرأ القصيدة فكيف تصدر عليها هكذا حكماً سريعاً ؟

نديم : (يمضى فى كلامه) لقد حسبها أحمد خبراً صحفياً، أو لعله كان محتاجاً إلى ملء فراغ فى الصحيفة فأسعفته بقصيدتك ، ولذلك لم يجد داعياً حتى لإعادة قراءتها ، وأنا واثق أنه قرأها وهو يفكر فى موضوع صحفى فلم يلق بالا لها !

فهمى : قلت لك: ولكنك لم تقرأها فكيف تحكم عليها هكذا يا أستاذ ؟ ؟ !

نديم : (يتابع كلامه كأنه لم يسمع اعتراض فهمى) اسمع يافهمى يجب ألاّ تقدم لأحمد شيئاً بعد الآن حتى تعرضه علىّ وتأخذ رأيى فى صلاحيته للنشر من عدم ذلك !

فهمى : أشكر توجيهك يا أستاذ ، وسأحرص على ما تقول ، ولكن قبل هذا أرجوك أن تسمع القصيدة (يسارع فهمى إلى إدخال يده فى جيبه ليخرج القصيدة)

نديم : (يوقفه بحركة من يده) لا ، لاتقل قبل هذا بل قل بعد

هذا . أما قبل هذا فقصيدتك لا قيمة لها !

فهمى : طيب يا أستاذ بعد هذا (ثم يخرج عدد الصحيفة و يناوله لنديم)

نديم : (يقلب الصحيفة ظهراً لبطن ولكنه لا يجد فيها شعراً فيدهش) أين القصيدة يا فهمى ؟

فهمى : عجيب ألم ترها يا أستاذ ؟ إنها فى الصفحة السادسة !

نديم : (يطالع الصفحة السادسة فلا يلحظ شيئاً) أين هى قصيدتك؟ هل تسخر منى يا فهمى أو تمزح ؟

فهمى : العفو يا أستاذ، العفو (ثم يضع يده على مكان من ذيل الصحيفة) ها هى ذى يا أستاذ ؟

نديم : (يقرأ) : «تشجيعاً من الصحيفة للناشئة الأدبية فإنه ليسرها أن تنشر بين الفينة والفينة شيئاً من إنتاجهم ، وهى ترجو ألا يروا منها فى جبر الخاطر هذا مجالا لإرهاقها بالتعقيب على ما يرسلونه أو تصديع رأس رئيس التحرير فى أوقات عمله بتقديم كلماتهم أو قصائدهم إليه مما يضطره أن يضيع وقته الثمين ويشغل صفحات الجريدة بما يستحق وما لا يستحق النشر ! . . وها نحن أولاء — عطفاً على الأديب الناشئ فهمى عبد الوهاب — ننشر هذين البيتين من قصيدته مرجئين نشر بقية أبيات القصيدة إلى فرصة أخرى :

لست أدرى أتسمعين ندائى   بعد أن نام فى هواك غنائى
وصحا خاطرى فلست أبالى   أأمامى خطرت أم من ورائى ؟ »

(يضع نديم الصحيفة ضاحكاً ملء شدقيه) ولكن لماذا لم تقل لى هذا من قبل ؟ لقد اطمأننت الآن !

فهمى : ماذا يا أستاذ اطمأننت الآن على ماذا ؟

نديم : اطمأننت على الصحيفة المحترمة وعلى ذوق صديقى أحمد .

فهمى : أشكرك يا أستاذ ، أشكرك . . .

نديم : عجيب تشكرنى على ماذا ؟

فهمى : ألم تمتدح ذوق الأستاذ أحمد ؟

نديم : بلى أمتدحه

فهمى : وهذا ما أشكرك عليه

نديم : ولكن ما دخلك أنت فى هذا ؟

فهمى : ألست تمتدح ذوقه لتقديره شعرى ؟

نديم : شعرك ؟

فهمى : نعم يا أستاذ . . .

نديم : وهل هذا شعر يا فهمى : « نام — صحا ، أمامى — ورائى ؟ لقد كدت والله تقول جزمتى — حذائى ؟ ! !

فهمى : ما دخل الحذاء فى هذا المجال الشعرى ؟ !

نديم : أقصد يا فهمى — وهذه نكتة لا تغضب لها — أن بعض الشعر يشبه الأحذية ، وأن شعرك حذائى النزعة ، أى سفلى من الدرجة الدنيا (يقهقه)

فهمى : (يضحك وتجول فى عينيه دموع !) إذن لم تعجبك القصيدة يا أستاذ ؟

نديم : (مشفقاً) لم أقل هذا ، وعلى أى حال لا أستطيع الحكم عليها حتى أقرأها كاملة . . .

فهمى : سيكون هذا فى العدد القادم إن شاء الله كما وعدنى الأستاذ أحمد . . .

نديم : إن شاء الله (أحمد يقبل من بعيد وهو يحمل رزمة من الصحف)

أحمد : السلام عليكم . أين أنت يا أستاذ نديم ؟ لقد قلبت عليك الدنيا بحثاً وتنقيباً ولكننى لم أجدك ؟

نديم : (ينظر إلى فهمى متعاظماً) لقد كنت هنا !

أحمد : ألم يجئ هنا حسين ؟

نديم : كلا ، لم يجئ بعد .

جمعة : (يقبل ثم يمسح المائدة) أتريدون شيئاً ؟

أحمد : (يشير إليه بيده أن ابتعد ويوجه كلامه إلى نديم) عجيب !

عجيب جداً والله ، الدنيا تقوم وتقعد من أجلك
وأنت سابح فى بحار الخيال تائه فى مجالى الأحلام ،
لقد حسبت أنلك متنبئ عصرك الذى قال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد اختصمنا من أجلك ورزقنا على الله .

نديم : (يستشعر العظمة من جديد) أو كنت يا أحمد أقل من المتنبى
مكانة فى عالم الشعر ؟

أحمد : كلا يا أستاذ ، كلا ! لقد أضعت بتوليك عرش
القريض وإمساكك صولجانه تيجان غيرك من
شعراء العالم أيها الشكسبير عصره ومتنبى دهره !

نديم : (محتجاً) ماذا تقصد يا أحمد ؟

أحمد : لا أقصد شيئاً ، ولكننى أقول إن المشهورين على
عظمتهم يجب أن يراعوا شعور الناس !

نديم : وهل أنا لا أراعى شعور الناس ؟

أحمد : أقصد بالشعور المواعيد ، ألم نتفق أول أمس على
موعدنا اليوم ؟

نديم : لا أتذكر !

أحمد : ألم أقل لك إن عندى بالصحيفة ركاماً من سخافات
الناشئين وصغار الشعراء ، وإنى سآخذ رأيك فيما

يصلح منها للنشر وما لا يصلح ! ؟

نديم : (مفكراً) آه ! تذكرت يا أحمد ، أرجوك المعذرة
(ينظر إلى فهمى)

أحمد : (متورطاً) لقد كان من نتيجة ذلك أن اضطرنى
الظرف إلى أن أنشر بعض سخافات الأديب فهمى . . .
(يتدارك) العفو يا أخ فهمى (فهمى يعبث ببعض كتب
نديم وكأنه لم يسمع ؛ أما أحمد فيوجه كلامه إلى نديم)
: لقد أحببت أن أخصص فى العدد السابق صفحة
كاملة للناشئين من الأدباء ولكنك لم تسعفنى بحضورك !

نديم : أنا متأسف ، ولكنك قلت إنك بحثت عنى كثيراً
فهل كان البحث لهذا السبب فقط ؟

أحمد : آه ! كلا ، كنت أريد أن أدعو الأدباء لإقامة
حفلة تكريم لك بمناسبة تهيئة الصحيفة ديوانك
الجديد للصدور !

نديم : فكرة جميلة . . . رأى موفق !

أحمد : ولكن مع الأسف قد قضى عليهما فى المهد !

نديم : قضى عليهما ؟ من قضى عليهما ؟ !

أحمد : صديقنا حسين لقد هبط على فى الصحيفة وأنا أرسم
برنامج الحفل ، وكان يحمل إعلانا لبعض بضائعه ،

وحينما لمح الورقة التى كنت أسطر فيها البرنامج . . .
اختطفها وهو يقول : ما هذا السخف الذى تكتبه
يا أحمد ؟ وحينما قلت له إن هذا برنامج لتكريم
الأستاذ نديم ، وإن عليك أن تسهم للحفل بمبلغ من
المال ، سارع إلى تمزيق الورقة وإلقائها فى سلة
المهملات ، وراح يتحدث معى فى تفاصيل الإعلان ،
وحينما أنكرت عليه موقفه من شعرك البارع وفنك
الرفيع غضب منى وأخذ الإعلان وانصرف مسرعاً ! !

نديم : لا أرجعه الله !

أحمد : كلا يا نديم إن الصحيفة تعتمد على مدّه لها
بالإعلان الدائم هو وزملاؤه التجار الذين يعمل على
استحثاثهم فى النشر فى جريدتنا ، ولئن استمر فى
غضبته فإن الصحيفة ستنهار مادياتها !

نديم : دائماً الماديات ، أما الروح فلا قيمة لها عندكم ...

أحمد : إن الإعلان عصب الجريدة ومادة الحياة لها ، والآن
عليك أن تعمل شيئاً لإنقاذ الموقف !

نديم : أعمل شيئاً ؟ هل أقدم إعلاناً أو أشتغل جابياً لك
عند التجار ؟

أحمد : كلا يا نديم ولكن فى يدك الآن زمام الموقف والصحيفة

بعد صحيفتك !

نديم : لا زمام ولا خطام !

أحمد : الأمر يسير !

نديم : كيف ؟

أحمد : تسترضى حسيناً ؟

نديم : أسترضيه أم يسترضينى ؟ ألم يكن عقبة فى سبيل تكريمى ويبث العراقيل فى طريقى ؟

أحمد : تمدحه بقصيدة !

نديم : أمدحه أم أهجوه ؟ ! ماذا أصابك يا أحمد ؟

أحمد : اقبل يا نديم تكتيكى الصحفى ، أظهر له أنك لا تدرى شيئاً عما دار بيننا ، ثم أطرفه ببعض أشعارك وبعد ذلك قل له هل تعرف يا حسين أن عصاميتك قد أوحت إلىّ بقصيدة عصماء ستنشر عما قريب !

نديم : ولكنى لا أحب أن أمدح أحداً . إننى لم أمدح العظماء ، فكيف أمدح هذا الحقير حسيناً عبد المادة ؟

أحمد : أنا لا أكلفك أن تمدحه ، ولكنى أرجوك أن توهمه أنك قد مدحته !

نديم : وإذا طلب إلى أن أريه المدح ؟ !

أحمد : قل له إنه عندى لأنشره !

نديم : ولكن ما فائدتى من هذا كله ؟

أحمد : هذه هى الأنانية والماديات يا نديم ؟

نديم : كلا ليست هذه أنانية . . .

أحمد : فائدتك أنك تنقذ صحيفة صديقك من الإفلاس لتجعلها لائقة بنشر قصائدك الخالدة (نديم يهز رأسه فى نشوة لهذا الثناء) ثم هناك فائدة أخرى !

نديم : ما هى ؟

أحمد : سنعيد مشروع التكريم ، وسنقومه بمال صديقنا حسين

نديم : وتنشر قصيدة فهمى كاملة فى العدد القادم !

فهمى : (ينظر ممتناً إلى نديم) لسانى يعجز عن الشكر يا أستاذ...

أحمد : نعم ، وسأنشر قصيدة فهمى مهما بلغت من السخف والتفاهة ، ولكن صه . . . صه ها هوذا حسين قادم ، أرجوك يا نديم ! العب دورك جيداً !

نديم : أهلا . . . أهلا بطلعت حرب زمانه . واقتصادى إبانه ، وحبيب أصدقائه وخلانه !

حسين : شكراً، شكراً (بسخرية) ما هذه الجريدة العصماء التى

تطوق جيدى بكلاليبها ؟

نديم : (يبتلع ريقه فى غيظ) أين أنت يا صديقى ؟ لقد طال بنا انتظارك ؟

جمعة : (يمسح فى حركة عصبية المائدة ثم يقف)

نديم : هات أربعة قهوة سكر زيادة أليس كذلك ياحسين؟

حسين : زيادة نقص زىّ بعضه ، ولكن الزيادة أحسن على أى حال !

فهمى : شكراً ، أنا لا أريد !

نديم : ثلاثة سكر زيادة يا جمعة !

أحمد : (يغمز بعينيه لنديم أن ابدأ الهجوم)

نديم : حسين أين أنت يا أخى ؟

حسين : إننى موجود فى محيطى ، سعيد بعملى ، معتد بشخصيتى ، لست من أولئك الباحثين عن المتاعب (يغمز مشيراً إلى أحمد) ولا من أولئك الذين يجرون وراء الأوهام أمثالكم ! . . .

نديم : نحن بلابل الإنسانية الشقية ! !

أحمد : (يفرد أوراقه ويكتب) هذا موضوع يستحق التسجيل ويستأهل النشر

حسين . بل أنتم حقن تخدير لكيانها ، يسمع الناس شعركم

عن الرياض الغناء والحدائق الفيحاء، فيخفون إليها تاركين مصالحهم تضيع ، ويصغون إلى كلامكم عن الغيد الحسان ومجالى الطرب والأنس فينامون عن طلب المعالى حالمين بلذيذ الوصل ، ويرونكم على شهرتكم لا تهتمون بمأكل أو مشرب فيؤمنون بفائدة القناعة والكسل والاسترسال وراء ما ترسمونه لهم من طرق ومناهج تدعونها—إفكاً—السعى وراء المثل العليا . إنكم بلا شك نواقيس تثبيط للهمم وإماتة للعزائم !

نديم : ما هذا الذى تهرف به يا حسين ؟

حسين : يؤسفنى أن أقول لك إنها الحقيقة الناصعة . ما جدوى شعرك هذا الذى تسهر الليالى الطويلة فى تحبيره ؟ نعم إنه سبيل للشهرة ولكن ماذا أجدت عليك الشهرة؟ أأعطتك متجراً ؟ أأسلمتك بيتاً ؟ أأنالتك سيارة؟ !

نديم : هذا هو التهريج الرخيص بعينه ، ألا يعيش الإنسان إلا ليقتنى العقار ويركب السيارات ويختزن الأموال ؟ أليس هنالك قيم ومعانى وروحانيات أسمى بكثير من القصور والضياع ؟ إنك لا تتصور

لذة القراءة فى نفس الأديب وسمو تحليقه وهو يصطاد أوابد المعانى ويترصد أبكارها !

حسين : ثم يفتح فمه للهواء ليطعم ويرتوى !

نديم : كلا ، ثم يفيض على الإنسانية الكادحة ، الإنسانية المجاهدة ، من الذخر المعنوى والكنز الروحى الذى أفاءه الله عليه والذى لا يعدل فى قيمته كنوز الدنيا مجتمعة !

حسين : هذا هو تحقير القيم بعينه ، إن الحياة بمعناها الصحيح لا تتأثر بهذه الترهات ولا تؤمن بها . إن الحياة وقائع تلمس ، والسعادة لا تتوافر للذين إذا اشتهوا طعموا وشربوا ونعموا بطيبات الحياة وتمتعوا بزوجاتهم وأولادهم وأملاكهم وسياراتهم ، هذه هى المتع الحقيقية أما سواها فليس إلا السراب الخادع .

نديم : وما الذى يمنع الشعراء والفنانين من الاستمتاع بذلك علاوة على متعهم الروحية وتحليقاتهم وشفافيتهم ؟

حسين : يمنعهم من ذلك أنهم لم يعملوا ولم يكدحوا فلن يصيبوا شيئاً من هذا ، ولك من نفسك أصدق مثل وأقوى دليل ؟

نديم : (محتداً كظيما) ماذا تعنى يا حسين ؟

حسين : أعنى أنك لا تملك ما يمكن لكثير من الناس أن

يستمتعوا به ... إنك لاتملك إلا فحولة فى القريض، فقل لى هل يستطيع هذا القريض أن يقرضك درهماً أو دينارا ؟ لقد أفلست دولة الشعر منذ زمن طويل ، فعليك أن تغير من خطتك وتساير ركب الحياة وتؤمن بمادياتها !

جمعة : (يقترب بالقهوة)

نديم : ستفلس أنت وعشرات من أمثالك وتبقى للروحيات والمثل قيمتها التى تعتز بها الإنسانية أى اعتزاز كرصيد من الخير لا ينفد !

حسين : كلام براق مزوق كشعرك !

جمعة : (يسكب القهوة فى الفناجين)

نديم : ماذا تعنى ؟

حسين : أعنى أنه كشعرك يخلبك نسجه فإذا تفحصته وجدت . . . .

نديم : ماذا ؟

حسين : وجدت أنه لا روح فيه ولا حياة !

نديم : (ممسكاً بالصحن الذى يحتوى على فناجين القهوة) أشعرى لا روح فيه أيها النذل الحقير ؟

حسين : (يدهش وتبرز بين شفتيه ابتسامة باهتة) نعم لا روح

فيه غير تلفيق المعانى التى لا تؤدى إلى غير تخدير الأعصاب وإنامة العقول !

نديم : (تهتز يده بالصحن ثم يقذف به فى وجه حسين فى عنف وعصبية)

سيبقى شعرى خالداً أيها الفدم ، وستنهار رأسماليتك وعشرات من أمثالك وتمضون كالعدم ليس لكم نصيب من شهرة أو ذكر !

حسين : (يقف مصعوقاً وملابسه متلوثة ثم يبتعد مغادراً المكان) هذا جزاء من يعيش مع المخبولين الذين يدعون أنهم شعراء وفنانون . مساكين هؤلاء الناس أى مساكين !

نديم :

ستمضى كطفل مات فى فجر عمره

وشعرى يبقى مالئا مسمع الدهر !

أحمد : مشهد درامى مؤثر ! هل تمت الرواية فصولا ياعزيزى نديم ؟

نديم : ماذا تريدنى أن أعمل مع هذا الفظ الحقير ؟

أحمد : لا شىء طبعاً ، لقد كانت قصيدة مدحك له مؤثرة جداً ، وكان الختام بيت القصيد فيها ، ولكنك نسيت أننى فقدت أعظم مورد من موارد الصحيفة المالية !

نديم : على أى حال فإن عليك أن تحدد موقفك وأن ترسم لك مبدأً واضحاً !

أحمد : لقد حددت ورسمت !

نديم : ماذا ؟

أحمد : لن تنشر الجريدة بعد اليوم موضوعاً أدبياً أو قصيدة شعرية !

نديم : وحفلة التكريم !؟

أحمد : عليها الرحمات !

فهمى : (فى صوت ملتاع) وقصيدتى الموعودة ؟

أحمد : ينشرها لك راوية الأستاذ نديم

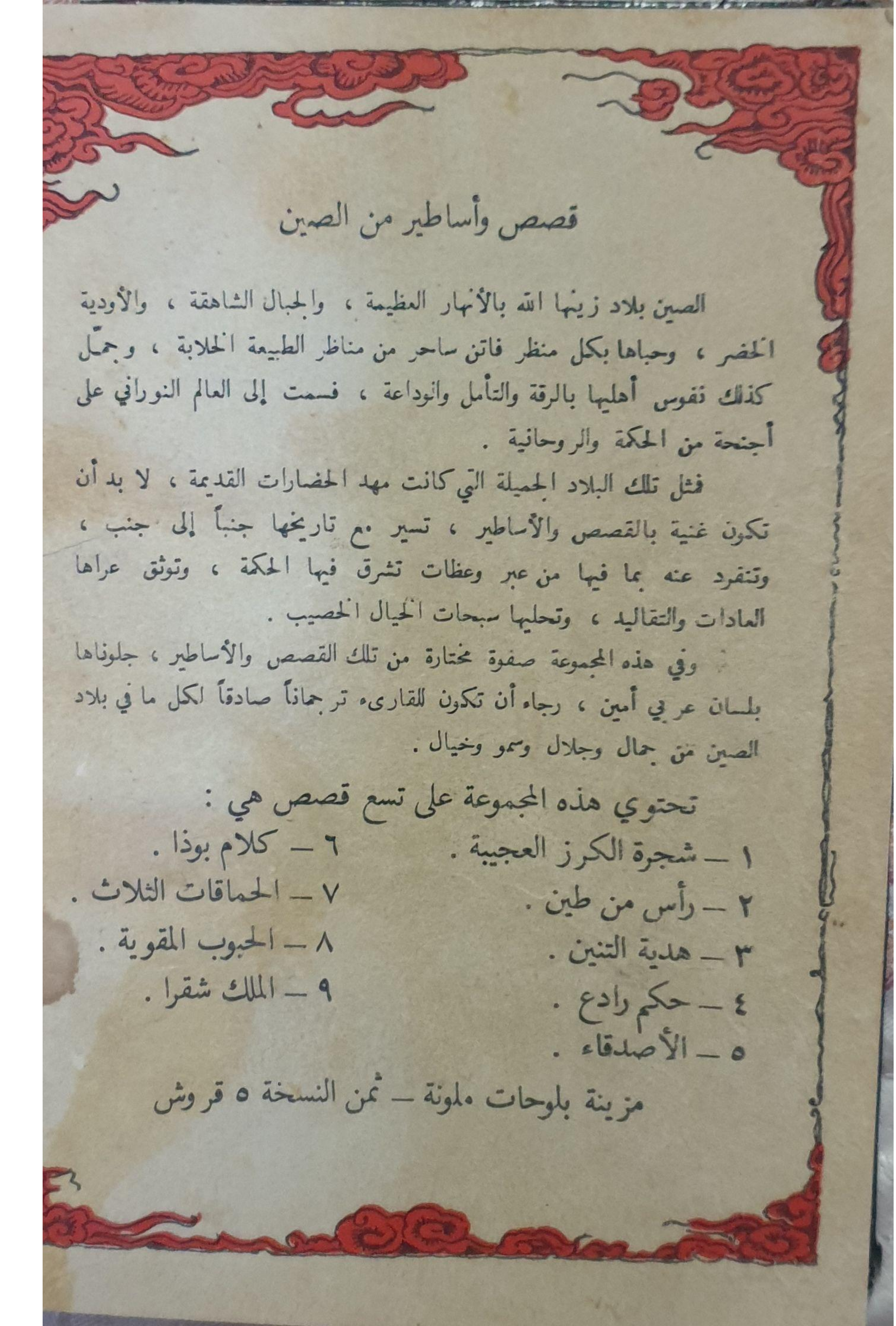
نديم : وقصيدتى الجديدة الرائعة ألا تسمعها ؟

أحمد : يمكنك أن تأخذ فيها رأى الأستاذ فهمى !

(ينهض أحمد مبتعداً)

ختـــام

فهرس



قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية .

فمثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

مزينة بلوحات ملونة ــ ثمن النسخة ٥ قروش